نِفرا

الضوء الملوث بالزيف

دار خيال ® للنشر والترجمة.
تجزئة 53، قطعة رقم 27 – بليمور
برج بوعريريج – الجزائر
الهاتف: 97 52 86 035 / 58 59 46 0774
البريد الإلكتروني: Khayaleditions@gmail.com
ردمك :
الإيداع القانوني: ماي 2026

••• ✦ •••

جميع الحقوق محفوظة ©
لا يجوز إعادة نشر هذا العمل
أو جزء منه بأي وسيلة دون إذن خطي من الناشر

✧❖✧

القرصنة تقتل الكتاب
حافظ على الثقافة
دعمك للنسخ الأصلية يضمن استمرارية الكتاب.

هيام كعلول

نِفرا

الضوء الملوث بالزيف

رواية

إن كنتُ أنا سجَاني... فمن الذي أقنعني أن هذا السجن اسمي؟

الإهداء

إلى الذين دنّسوا النور بأيديهم،
ثم صلّوا تحت ظلاله وكأنّهم أطهار
إلى كلّ من باع الصدق بثمنٍ من الوجوه
وغسل عاره بكلماتٍ عن الحرية
هذه الصفحات ليست اعتذارًا
بل مرثيةٌ للضوء، وفضيحةٌ للزيف

كلمة المؤلفة

ليست هذه الرواية سطراً من خيال عابر
بل محاولة لفضح الزيف حين يتزيَّن بثوب النور
ولتعريَة الحقّ حين يختبئ خلف لافتة الفضيلة
كتبتُ نِفرا لا لأحكي، بل لأُقاوم
لأذكّر أن اللغة ليست وسيلةً للحكاية فحسب
بل سلاحٌ يصون المعنى من التلوث
وأنّ الحرف العربي، مهما حاصرته الرداءة
لا يزال قادراً على أن يجلد الظلام بجماله
هذه الرواية وُلدت من يقينٍ بأنّ الأدب ليس زينةً
بل ساحةُ فكرٍ وصراعٍ وصدق
فليقرأها من يؤمن أنّ الكلمة يمكن أن تُطهّر...
كما يمكن أن تقتل.

المقدمة

ليس في هذا العالم ما هو أنقى من الضوء... سوى ظلاله
فالضوء، وإن بدا مخلَّصًا، يحمل في داخله خيانةً خفيّة؛
خيانةَ النقاءِ حين يظنّ أنه فوق الدنس.
في زمنٍ امتلأت فيه الوجوهُ بالأقنعة،
والقلبُ صار مرآةً مكسورة تعكسُ الزيفَ بألف شكلٍ من الجمال،
تولَد "نِفـرا" لا لتُخلِّص العالم، بل لتفضحه.
ليست بطلة، ولا نبية
إنها سؤالٌ مشى على قدمين،
وصرخةُ وعيٍ خرجت من رحم العتمة لتقول:
"ما عدتُ أؤمن بالنور الذي يخاف من الحقيقة"
هذه ليست حكاية عن الخير والشر،
بل عن المسافة الضيّقة بينهما، تلك التي تُقيم فيها أرواحنا منذ أن نسينا أنفسنا .
كل ما في هذه الصفحات ليس رواية، بل مرآة تُعيد إليك وجهك الحقيقي، حين تسقطُ عنها مساحيقُ النور.

بوّابة إيليترا

"الظلامُ لا يكمن في الأزقة المظلمة، بل في الشقوق التي نخفيها داخل صدورنا وتسميها قلوباً.. تعلمْ أن ترى هذا الظلام، وستبصر العالم بعيونٍ لا تعرف الخداع ".

كانت "إيليترا" تشبه مدينةً وُلدت من رحم نورٍ مكسور؛ اسمٌ يلمع كالمعدن المصقول، لكنه ينفثُ صدأه في الأرواح قبل الأجساد. يقولون إنها "الفردوس المتقدم"، يملؤون الآفاق ضجيجاً عن التحرر واللحاق بالمستقبل، لكنك ما إن تطأ قدماك عتباتها حتى تشعر بأن الهواء نفسه يمارس عليك خدعةً كبرى. الزمن هنا لا يهرول للأمام بل هو وحشٌ يزحف إلى الخلف، متدثراً بثياب الحداثة الزائفة .

في إيليترا، كل شيء يلمعُ لدرجة العمى، لكن البريق لا يلامس الجوهر أبداً. الابتساماتُ ليست تعبيراً عن فرح، بل هي أقنعةٌ مسرحية مُثبتة بمسامير الالتزام الاجتماعي؛ الوجوه ناعمة كالحرير، لكن الأرواح تحتها مشققة كأرضٍ لم يزرها المطر منذ قرون. الكلمات هنا كثيرة.. كثيرة لدرجة الإعياء، كأنها فيضانٌ يهدف لإغراق "الصمت الحقيقي" الذي ينهش الضمائر .

لقد قلبوا الموازين حتى صار "المقدس" مادةً للسخرية في مجالسهم المترفة :

الحياء: صار يُسمى "عُقدةً" نفسية يجب التحرر منها .

الدين: وُصف بأنه "أغلالٌ عفا عليها الزمن" لا تليق بإنسان الضوء .

العائلة: تحولت في نظرهم إلى "سجنٍ" يقيد نزوات الفرد .

حتى الحب، ذلك الشعور الذي كان يحرك الجبال، مسخوه إلى "استهلاكٍ سريع"؛ يُشرب ويُرمى كعلبةٍ فارغة في حاوية النفايات الروحية. الناس في إيليترا لا يحبون، بل يهربون من "خوف الوحدة" الذي يبتلعهم كلما انطفأت الأنوار. يظنون أنهم أحرار، بينما العبودية تنبض تحت جلودهم كمرضٍ خفي؛ عبيدٌ لصرخة الموضة، عبيدٌ لوميض "الترينـد"، وعبيدٌ لتصفيق القطيع الذي يقدّس اللاشيء .

"إنهم يظنون أن كسر القيود القديمة هو الحرية، ولا يدركون أنهم يربطون أنفسهم بقيودٍ أصعب، لأنها مصنوعةٌ من رغباتهم لا من حديد سجّانهم".

إيليترا مدينةٌ تتجرع الحرية في الصباح كخمرٍ معتق، وتختنق الروح في المساء خلف أبواب الملاهي. تضحك بصوتٍ عالٍ، لكن ضحكاتها تشبه بكاءً متنكراً في زيّ قهقهة. تبدو حيةً ونابضة، لكنها تتآكل من الداخل كما يتآكل إنسانٌ يبتسم ببراعة وهو يشعر بانهيار أضلعه واحداً تلو الآخر في صدره.

وفي قلب هذا الهياج الملون، وسط هذا النور الذي "يعمي" أكثر مما "يهدي"، تنهض "نِفرا". لم تأتِ نِفرا كبطلةٍ تعرف طريقها، بل كروحٍ تمشي على حافة الوعي الحاد، تبحث عن بابٍ لم يلوثه الزحام. لم تأتي لتغير العالم بقدر ما جاءت لتنزع عنه ورقة التوت، لتقشر الذهب الزائف عن الوجوه الصدئة وتصرخ في وجه المدينة :

"إن السجن الحقيقي ليس جدراناً وقضباناً، بل هو قلبٌ يرفض الاعتراف بكسوره، وروحٌ تبيع نورها لتشتري به إعجاب العابرين".

هنا تبدأ الحكاية.. عند بوابة مدينةٍ تلمع في وجوه الغرباء، وتنزف في صدور أبنائها

الجزء الأول: الظلال الأولى

"أخطر ما في البداية أنها لا تشعرك بالخطر، بل تطمئنك بما يكفي لتدخل العتمة وأنت تبتسم..كأنك تعانق جلادك ظناً منك أنه يواسيك ".

هناك زلزالٌ صامت يحدث في أعماق الإنسان قبل أن يجد له اسماً، شيءٌ يشبه صرخةً وُلدت بلا حبال صوتية،وفراغاً يطرق باب القلب بإصرارٍ هادئ، هامساً: "انتبِهي.. كل ما تلمسينه هنا هو محضُ سراب."

كانت نِفرا تشعر بهذا الخواء يسكن مساماتها قبل أن يدركه عقلها. تمشي بين الحشود، ترقبهم وهم يمارسون طقوس "الحياة"؛ يضحكون، يثرثرون، ويتصادمون بأجسادهم، لكن شيئاً ما في كينونتها كان يرى الحقيقة العارية: أن كل قهقهة هي مجرد غطاءٍ لثقبٍ أسود، وأن كل كلمة هي قناعٌ يحجبُ حقيقةً أكثر عظمةً، وأشد إظلاماً، وأكثر صدقا.

كان الهواءُ في إيليترا ملوثاً بذراتِ الخداع؛ حتى ضوءُ النهار لم يكن يهدفُ للإنارة، بل للتضليل، ليلفت الأنظار بعيداً عن الشقوق الصغيرة التي تبدأ في النفوس بهدوء، ثم تتسع بلا ضجيج ولا شهود، حتى تبتلع الإنسان بكامله .

"إننا نعتادُ العيش في الظلال لدرجة أن الضوء الحقيقي يوجعنا، فنفضلُ العمى الأنيق على الرؤية الفاضحة".

الباب الأول: الهمس في الصمت

"ثمة أصوات لا ينطقها البشر...لأنها أخطر من أن تُقال بصوتٍ مسموع".

لم يكن الليل في إيليترا هادئاً، بل كان متواطئاً بصمتٍ مريب يمد ظلاله فوق الشوارع كما تمد يدٌ باردة كفناً فوق جثةٍ لم يجرؤ أحدٌ على الاعتراف بموتها بعد. كانت نِفرا تمشي وحيدة، وخطواتها على الأرصفة الصقيلة تُحدث رنيناً يبدو غريباً، كأن الأرض نفسها ترفض وطأة قدمٍ تبحث عن الحقيقة. لم تكن تدري ما الذي دفعها إلى هذا التيه الليلي، أهو الهروب من الضجيج أم هو نداءٌ خفي من قاع روحها؟ كلما توغلت في الأزقة،شعرت بأن الحقيقة تتكمش وتتوارى كأن الشوارع تتلاعب بوعيها،وكأن المدينة كائنٌ حيّ يغير ملامحه لكي لا يُكشف عُريه.

في تلك اللحظة،لم تكن تسمع شيئاً، وهذا تحديداً ما بذر الرعب في أحشائها. فالصمت في إيليترا ليس غياباً للضجيج، بل هو حضورٌ كاشف لشيءٍ ينتظر اللحظة المناسبة ليفترس الأوهام. شعرت بذلك الاضطراب القديم ينهش صدرها، ذلك اليقين المرّ بأن هذا العالم الذي نلمسه ونبصره ليس حقيقياً بالقدر الذي يدّعيه، وأن هؤلاء البشر الذين يملؤون الساحات لا يعيشون حقاً، بل "يتظاهرون" بالحياة، يؤدون أدواراً كُتبت لهم في مسرحيةٍ لا تنتهي.

"ماذا أفعل هنا؟ ولماذا يطاردني هذا الخواء كأنه ظلّي؟"

سألت نفسها، لا لترتجي جواباً، بل لتختبر صمود خوفها أمام هذا السكون الجبري. فجاءها الصوت لم يكن صراخاً،بل كان هَمساً خفيفاً كنسيمٍ مسموم، دافئاً كدمعةٍ حارة، وقاسياً كمبضع جراحٍ يمزق اللحم الحي. "أنتِ هنا لأنكِ الوحيدة التي لم تفقد حاسة السمع في مدينةٍ أصمّها البريق. أنتِ هنا لأنكِ "الخلل" الذي يهدد استقرار هذا الزيف الجميل".

توقفت نفرا، وشعرت ببرودةٍ مفاجئة تكتسح أطرافها. لم يكن الصوت نابعاً من زقاقٍ مظلم، ولم يكن من نسيج عقلها وحدها؛ كان شيئاً ثالثاً، صوتاً من تلك المنطقة الرمادية التي تلتقي، فيها الروح بوعيها المطلق. رفعت رأسها نحو المباني الشاهقة، كانت مشرقةً بأضواء "النيون" حد الفجور، ألوانٌ مبالغ فيها كأن المدينة تحاول أن تستر خلفها قبحاً مات فيها منذ زمن. ضحكات الناس الذين يمرون بعيداً بدت لها كقطع معدنية تصطدم ببعضها، باردة، بلا روح، بلا حرارة إنسانية. كانت وجوههم تتحرك، لكن أعينهم كانت ثابتة؛ ذلك الجمود الروحي الذي يجعل من الإنسان مجرد جثةٍ متحركة، ترتدي ثياباً غالية الثمن. وضعت يدها على صدرها، كان قلبها يضرب جدار

أضلاعها بعنف، كأنه سجينٌ يحاول تحطيم زنزانته والهروب إلى الخارج. - "لماذا أشعر بكل هذه الغربة؟ لماذا يبدو بيتي كأنه منفى؟"

جاءها الرد، أقرب هذه المرة، كأن أحداً يتنفس في أذنها :

"الغربةُ الحقيقية لا تأتي من فراق الأمكنة، بل من الحقيقة التي تدركينها قبل الآخرين. إنكِ غريبةٌ لأنكِ استيقظتِ في مأتمٍ يصرُّ الجميع فيه على الرقص".

شعرت بوخزةٍ في عمودها الفقري، التفتت بذعر فلم تجد أحداً، لكن الظل على الجدار لم يكن ظلها؛ كان كائناً مستقلاً، يتحرك ببطء، يراقبها بعينين غير مرئيتين. مشت نحو مرآةٍ قديمة صَدئة على باب متجرٍ مهجور، كانت تتوقع أن ترى ملامحها المألوفة، لكن ما رأته جعلها تتراجع خطوة للوراء. في المرآة، لم تكن هناك "نِفرا" الأنيقة، بل رأت عينين غائرتين يسكنهما تعبٌ يمتد لآلاف السنين، رأت ندوباً على وجهها لم تكن قد رأتها في ضوء النهار، ندوباً رسمتها الخيبات والكلمات التي لم تُقل. رأت ارتجافةً في شفتها كأن وجهها يصرخ بالحقيقة التي لطالما كتمتها .

همس الداخل فيها :

" -تأملي جيداً.. هذا أنتِ قبل أن تلطخكِ أصباغ المدينة، هذا أنتِ قبل أن تتعلمي كيف تكذبين لكي يُقال عنكِ إنكِ "بخير "."

شعرت بثقلٍ هائل يخدر فوق كتفيها، ثقل المعرفة التي تجرح. المعرفة في إيليترا ليست نوراً، بل هي نصلٌ يذبح الأوهام. أغمضت عينيها بقوة، لكن الهمس لم يتوقف، بل أصبح أكثر ضجيجاً :

" -أنتِ لا تمشين في شوارع، أنتِ تمشين في صَدعٍ داخل نفسكِ، وكل خطوةٍ تقرّبكِ من الهاوية هي في الحقيقة خطوةٌ نحو النجاة ".

فتحت عينيها، فوجدت الليل قد ازداد كثافة، وكأن الهواء صار مادةً سائلة تخنق الصدور. وفجأة، ارتعد كيانها بصوتٍ جديد، صوتٍ حاد كأنه قادم من أعماق بئرٍ سحيق :

" -إلى أين تهربين؟ "

ارتجفت نِفرا، لم تكن تتوقع هذا العُري في السؤال .

" -أنا.. أنا لا أهرب، أنا أحاول فقط أن أفهم هذا الخواء ."

ضحك الصوت ضحكةً مريرة، ضحكة شخصٍ يرى المشهد من الأعلى :

" -تفهمين؟ أنتِ التي بنيتِ حياتكِ على الكذب الجميل؟

اعترفي.. أنتِ خائفة ."

سقطت الكلمة فوقها كصخرة.

" -نعم.. أنا خائفة ."

كان الاعتراف مراً كالسم، لكنه كان مريحاً كخروج الروح من ضيق الجسد .

" -أنا خائفة لأنني وحيدة في هذا الوعي ."

"-لا.. أنتِ خائفة لأنكِ تدركين أن هذا العالم الذي يقدسونه ليس سوى حطامٍ مذهّب، وأنكِ تشبهينه في انكسارك. الجزء الذي تحاولين إخفاءه عن الناس هو الجزء الوحيد الذي لا يزال حياً فيكِ ".

تقدمت خطوة أخرى، فشعرت بأن الأرض تتشقق تحت قدميها، ليس مادياً، بل رمزياً. بدأ الليل يفتح لها أبواباً لم تكن تراها. رأت وجوه المارة تتغير، لم تعد وجوهاً بشرية، بل أصبحت "أقنعةً" تتساقط أجزاؤها لتكشف عن فزعٍ مقيم وخواءٍ لا ينتهي. رأت في كل وجهٍ حكايتها الخاصة، ورأت في كل صمتٍ صرختها المؤجلة .

"إن الحقيقة لا تُمنح لمن يبحث عنها بفضول، بل تُمنح لمن يملك الشجاعة ليحترق بنارها. تابعي يا نِفرا، فمن يسمع الهمس مرة، يفقدُ للأبدحق العودة إلى غيبوبة القطيع".

رفعت نِفرا رأسها، والآن فقط، فهمت أن الخوف ليس عدواً، بل هو "البوصلة". مشت نحو العمق، ومع كل خطوة، كان وجهٌ من وجوه المدينة "يتقشر" أمامها، كاشفاً عن الحقيقة البشعة التي تكمن خلف الباب الثاني .

الباب الثاني: الوجوه المشققة

"نحن لا نخاف من الوجوه في حد ذاتها، بل نرتعدُ من تلك اللحظة التي تتشقق فيها الملامح بغتة، فتكتشفُ بذهول أن ما أحببتَه لم يكن إنساناً قط.. بل كان قناعاً متقن الصنع، خلفه فراغٌ يبتلع الوجود".

لم تكن نِفرا قد فكت شفرات العالم بعد، لكنها في تلك الليلة أدركت حقيقةً واحدة نزلت على روحها كوقع الصاعقة: الوجوه في "إيليترا" ليست ملامح، بل هي مرايا مكسورة تعكسُ ما يستميتُ الناس لإخفائه لا ما يملكونه حقاً. الوجهُ هنا يُرتدى في الصباح مع الثياب؛ يُبتسمُ به كما يُستعمل قناعُ مهرّج هرم، قناعٌ شمعي يخفي جرحاً غائراً في الداخل، جرحاً لا يريد أحد أن يعترف أنه ينزف .

من المثير للغثيان أن الجميع يدّعون أنهم "بخير" والأكثر إثارةً للرعب أن الجميع يعلم، أن الآخر يكذب، ومع ذلك يتظاهرون بأنهم يصدّقون، في رقصةٍ جماعية من الزيف الممنهج. وقفت نِفرا في وسط الشارع المزدحم وشعرت كأنها تقف على حافة هاويةٍ داخل عقل شخصٍ آخر. كانت تنظر في عيون العابرين... يا إلهي! تلك العيون لم تكن تُبصر حقاً كانت مجرد عدساتٍ زجاجية تتحرك بآليةٍ صماء، كآلةٍ صدئة تدور لأن قوىً خفية أمرتها بالدوران.

" -لماذا يرتعدون من الحقيقة؟"

سألت نفسها بصوتٍ خافت، ثم انفجرت بضحكةٍ موجوعة خرجت من بين ضلوعها كأنها اعترافٌ بالذنب.أدركت في تلك اللحظة أن الإنسان حين يرى العالم محطماً، فهو في الحقيقة لا يرى سوى "حطامه الشخصي" المنعكس على مرآة الآخرين. كانت الوجوه تمر أمامها كشهودٍ فارين من مسرح جريمةٍ لم تُكتشف بعد: وجهٌ يتصنّع الثقة ليداري ارتعاش أعصابه، وآخر يبيع السعادة الزائفة ليخفي إفلاسه الروحي، وثالث يبتسم بميكانيكيةٍ مريبة تجعل عضلاته تتحرك بمعزلٍ عن قلبه.

لم تكن نِفرا تكرههم، بل كانت ترى فيهم شيئاً يشبهها؛ شيئاً ضائعاً صامتاً، ومذعوراً. وشعرت بيدٍ باردة تلتف حول عنقها، همساً يمرُّ قرب أذنها دون كلمات، كأن "إيليترا" نفسها تمتلك عيناً كونية تراقبها، وتعرفُ حقيقتها التي لم تكتشفها هي بعد.

" -كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يرتدي وجهاً لا يشبهه؟ "

جاءها الجواب من قاع صدرها كحكمٍ بالإعدام :

" -إلى أن ينسى ملامحه الحقيقية تماماً.. أو إلى أن يموت خنقاً خلف القناع." شعرت نِفرا بالذعر، ليس من الناس، بل من احتمال أن تتحول إلى واحدةٍ منهم؛ وجهٌ آخر مشقق، مرقع بابتساماتٍ مستعارة لا يعكس سوى العتمة. كان في داخلها صوتٌ قديم، صوتٌ لم تتعلمه في مدارسهم، بل نبع من حرمانها الطويل: "إيليترا لن تُريكِ الحقيقة أبداً، ستُريكِ أشباحاً تتظاهر بأنها حية ."

رفعت رأسها نحو السماء الرمادية الملبدة بدخان الزيف، وهمست بكلماتٍ لم يسمعها إلا الهواء :

" -لن أكون وجهاً مكسوراً آخر.. حتى لو اضطررتُ إلى تحطيم كياني بالكامل لأجد شظيتي الحقيقية".

لم تكن نِفرا تسير في الشارع بقدميها فقط،بل كانت تسير بوعيها الذي بدأ يتشكل كجرحٍ جديد. رأت رجلاً يحدق في هاتفه ووجهه يصرخ: "لا تتركوني وحدي!"، ورأت امرأة تضحك بصوتٍ عالٍ وهي تمسك يد صديقتها، لكن عينيها كانتا تجريان خلف سرابٍ مفقود. أما الطفل الصغير.. ذلك الصغير الذي يحمل في عينيه حزناً أكبر من عمره، وكأن القدر أخبره مبكراً أن العالم لا يرحم من يفهمون اللعبة بسرعة .

كل هذه الوجوه كانت بالنسبة لنِفرا ككتابةٍ على جدارٍ قديم تآكلت حروفه، ولم يعد أحد يملك الشجاعة لقراءتها. لكن ما أرعبها حقاً هو ذلك الشعور الذي تسلل إليها كمن يمد يداً باردة على قلبها: "هل أنا مثلهم؟ "

جاء السؤال كصفعةٍ لم تهرب منها. وقفت وسط الطريق، تنهار من الداخل بينما جسدها متصلب :

" -هل أنا قناعٌ آخر؟ هل أضحكُ لأنني خائفة؟ هل أدّعي القوة لأنني منهارة؟ "

كانت الكلمات تمر داخلها مثل سكاكين، تذبح كبرياءها الزائف.

وفي تلك اللحظة، مالت المدينة نحوها وهمست بصوتٍ ليس له حنجر: - "الضعفاءُ وحدهم يحتاجون الوجوه ليواروا عجزهم، أما الذين أبصروا الحقيقة.. فلا وجه لهم أصلاً ".

توقفت أمام مرآةٍ كبيرة في واجهة محلٍ فاخر. كانت المرآةُ نظيفةً لدرجةٍ مستفزة، وكأنها تتعمد فضح كل ثقبٍ في الروح. نظرت نِفرا إلى نفسها، ولم تتعرف على تلك الغريبة التي تحدق فيها .

" -متى فقدتُ نفسي؟ ومتى صرتُ حجراً في هذا الجدار المشقق؟" رفعت يدها إلى خدها، تلمسته كمن يتأكد أن جسده لم يتحول إلى خشب أو بلاستيك، ثم همست للمرآة بصوتٍ موجوع :

" -متى.. متى بالضبط فقدتُ ملامحي؟ "

مرت الرياح بجانبها محملةً بنبوءةٍ مريرة :

" -مَن لا يرى شقوقه، سيصبحُ مجرد شقٍّ آخر في وجه هذا العالم ".

أدركت نِفرا أن الهروب من الحقيقة يكسر الإنسان أكثر مما تكسره الحقيقة نفسها. وبينما كانت تهرب من انعكاسها، لمحت على أحد المقاعد رجلاً عجوزاً يحدق في المارّة بصمتٍ غريب. لم تكن عيناه عيني عجوزٍ متعب، بل عيون إنسانٍ رأى من الحقائق ما يكفي ليملّ من البصر. اقتربت منه، فنطق بصوتٍ يخرج من تحت أنقاض السنين: - "أتعرفين يا ابنتي؟ أسوأ ما في الوجوه ليس ما يراه الناس، بل ما نعرفه نحن عن أنفسنا ونرفض الاعتراف به. نحن لا نخشى الوجوه المشققة، بل نرتعدُ خوفاً من رؤية الصدع الذي يسكنُ أعماقنا ".

كانت كلماته تفتح نوافذ مغلقة في صدرها منذ الأزل. تابع العجوز وهو يشير لقلبه بيده المرتعشة :

" -كل واحدٍ منا يحمل داخله صدعاً يبدأ كهمسٍ بسيط، ثم ينمو ليصبح جرحاً، فندبة، ثم وجهاً مستعاراً نعيش به. البشرُ لا يُصلحون يا ابنتي.. البشرُ يُكشفون فحسب ".

سألته بنبرةٍ مرتعشة :

" -وهل جئتُ هنا لأعرف الجواب؟ "

نظر العجوز في أعماقها وقال قبل أن يرحل :

" -لا تثقي بالوجوه التي لا تنكسر؛ فالكمالُ قناع، والقناعُ كذبة، وأخطر الأكاذيب تلك التي نصدّقها عن أنفسنا ".

رحل العجوز مخلفاً وراءه صمتاً أثقل من الجبال. وقفت نِفرا، وشعرت بأن المدينة قد انحنت قليلاً لتهمس لها بسرها الأخير :

" -الناس لا يهربون من الحقيقة... بل يهربون من جحيم رؤيتها ".

لقد انتهى عهد السذاجة. عادت نِفرا للسير، لكن خطواتها كانت "تتحسس جرحاً جديداً" لم يعد الضوء في "إيليترا" يضيء لها الطريق، بل صار يراقبها، يفتشُ في مسام جلدها عن "الحقيقة" التي تخفيها.

"احذري من الضوء؛ فالظلامُ واضحٌ لا يخدع، أما الضوء في إيليترا.. فهو القناع الذي يخفي خلفه كل الفظائع ".

وهكذا، انفتح أمامها الباب الثالث، الباب الذي يفضح الوهم ويحوّل الضوء إلى سلاح.. "ضوء لا يعرف الظلام ."

الباب الثالث: ضوءٌ لا يعرف الظلام

"ليس كل ضوءٍ خلاصاً، فبعض النور لم يُخلق ليبدد العتمة، بل وُجد لكي يسمل عيوننا ويمنعنا من رؤية الخرائب التي تسكننا. في إيليترا، الضوء هو الجلاد الأنيق الذي يغسل ذنوب المدينة ببريقٍ زائف ".

كانت الوجوه التي عبرت بها نِفرا لا تزال عالقةً في مخيلتها كصورٍ محترقة، وجوهٌ مشققة يلمع فوقها قناعٌ ناعم، ملمسُه من حرير وقلبُه منحجر. ابتساماتٌ كاملة التدوير، لكنها تخفي خلفها أرواحاً مكسورة لا تجد من يرمم شظاياها .

وفجأة، تلاشى كل شيء؛ البشر، الضجيج، والأرصفة، ليحل محلهم ضوءٌ بدأ يتمدد كأنه كائنٌ حي، يتشكل في ممرٍ طويلٍ لا نهائي .

كان ممرّاً يصنعه نورٌ بلا دفء، نورٌ يشبه ابتسامةً باردة فوق وجه جثة. وقفت نِفرا في منتصف هذا الفراغ المشع، وشعرت كأن الأرض تنسحب من تحت قدميها ببطء، كأن الجاذبية نفسها تخلت عنها لتتركها معلقة في "اللاشيء". لقد سمعت الهمس في الصمت، ورأت الوجوه في تشققها، لكن الآن.. الضوء نفسه بدأ يتكلم بلغةٍ لا تفهمها الأذان، بل تفهمها الأرواح المذعورة .

بدأ الممر يزداد وضوحاً، لكنه لم يكن وضوحاً يمنح الطمأنينة، بل كان نوعاً غريباً من الإضاءة الجراحية؛ إضاءة تنظف الأشياء من ظلالها لدرجة أنها تمحو معناها. كل شيء كان لامعاً أكثر مما يحتمل العقل، لمعاناً مصطنعاً كأن أحداً قد طلى العالم بطبقة من "الورنيش" الروحي كي يمنع الرؤية عما تحته من عفن. اقتربت نِفرا من الجدار، مدت يدها المرتعشة لتلمس ذلك الضياء، لكن أصابعها مرّت من خلاله كما يمر الوهم من خلال الذاكرة. كان ضوءاً بلا مادة، نوراً يفتقر للوجود.وفجأة،انشق الضوء كما تنشق صفحةٌ من كتابٍ قديم،وخرج منه صوتٌ ليس له حنجرة بشرية، صوتٌ ينبع من اللمعان ذاته :

" -توقفي"!

تجمدت نِفرا في مكانها، وشعرت بأنفاسها تتقطع. لم تكن تتوقع أن يخاطبها "اللاشيء"، خصوصاً حين يكون بلا وجه وبلا ملامح.سألت بصوتٍ يملؤه التردد :

" -مَن.. مَن أنت؟ "

أجابها الصدى المنبعث من الجدران الضوئية :

" -أنا النور الذي لا يعرف الظلام، ولهذا.. أنا لستُ كاملاً. أنا الكمال الزائف الذي تقتات عليه إيليترا لتنسى نقصها".

رفّت عيناها بخوفٍ لا اسم له. أدركت أن هذا النور ليس منحةً إلهية، بل هو "قناعٌ" كوني آخر. ومع كل خطوة تتقدمها، كان الضوء

يزداد توهجاً، كأنه يحاول بجهدٍ يائس أن يحجب حقيقةً ما تقبع في الطرف الآخر.

" -لماذا.. لماذا يلمع كل شيء هنا بهذا الشكل المزعج؟ "

صرخت نِفرا وهي تغطي عينيها بكفيها.

ضحك الضوء، وكانت ضحكته تشبه تكسر الكريستال :

" -لأن العالم خلف هذه البوابة يعشق المظاهر، يحب أن يبدو نظيفاً، متقدماً، ومتفتحاً، حتى لو كان القيح يملأ أحشاءه. اللمعان هنا هو السجن الذي يقبل الجميع بالبقاء فيه ما دام سياجه مذهباً ".

"الحقيقةُ في إيليترا هي العورة الوحيدة التي يجب سترها بالبريق، والصدقُ هو الفضيحة التي لا يغفرها الضوء".

انشق الممر أمامها فجأة، وظهرت المدينة الكبرى.. إيليترا في ذروة تجليها ناطحات سحاب من زجاجٍ يعكس السماء الرمادية، شوارع واسعة كأنها عروقٌ من ذهب، وشاشاتٌ عملاقة تصرخ بوعود السعادة رأت الناس يضحكون والموسيقى تملأ الآفاق، لكن عين نِفرا، التي تعمدت في الصمت، بدأت ترى "الشقوق". رأت التآكل خلف الزجاج، وشمّت رائحة احتراق الأرواح خلف عطورهم الغالية.

همست نِفرا بذهول :

" -كل شيء.. يبدو جميلاً بشكلٍ مرعب ."

رد الصوت بقسوة :

" -قلتِ يبدو.. وهذا هو نفّنا الكبير. في عالمٍ يقدس 'الظهور'، يصبح 'الوجود' تهمة. يظنون أنهم أحرار، وهم عبيدٌ لكل ما يلمع. يضحكون، لكن قلوبهم ثقوبٌ سوداء تبتلع كل معنى ".

سقطت هذه الكلمات على قلبها كحجرٍ ثقيل في بحيرةٍ متجمدة. وفي تلك اللحظة، اقترب الضوء منها لدرجة أنه كاد يلتهم ظلها. قال الصوت :

" -أنتِ لستِ واحدة منهم يا نِفرا. أنتِ تملكين اللعنة الأكبر: أنتِ تَرين ".

انطفأ الضوء بغتة، وتركت نِفرا واقفة أمام المدينة لأول مرة، عاريةً من أوهامها. وبينما هي تتأمل هذا الجمال المحطم، ظهر لها "هو".ظلٌ غامض، نصفه يلمع كالفضة ونصفه يتآكل في عتمة سحيقة. ابتسم لها ابتسامةً خالية من الأسنان، كأنه يختزل تاريخ المدينة في وجهه الواحد.

" -أهلاً بكِ في الجحيم المشرق... أهلاً بكِ يا نِفرا ".

ارتعدت نِفرا :

" -كيف تعرف اسمي؟ ومَن أنت؟ "

أجابها الظل بصوتٍ هادئ كصفير الريح بين الأبراج الزجاجية :

"أنا ما لا تجرئين على النظر إليه في المرآة. أنا الحقيقة التي تختبئ خلف الوجوه المشققة. أنا النور والظلام حين يتعانقان في لحظة احتضار ".

اقترب منها، فصمتت المدينة تماماً. توقفت الموسيقى، وانطفأت الشاشات، لتجد نفسها وحيدة أمام "حقيقتها ".

قال لها الظل بيقينٍ مرّ :

" -لن تعرفي الحقيقة ما لم تخسري كل ما تملكين، ولن تبصري النور الحقيقي ما لم تتعلمي كيف تمشين في العتمة بلا خوف. المدينةُ تعلمكم ارتداء الوجوه، لكنني أقول لكِ: كوني بلا وجه، كوني فضاءً عارياً، واكتشفي ما وراء القناع ".

شعرت نِفرا بدوارٍ كوني؛ لم يعد العالم كما كان. كل ضحكةٍ صارت صرخة مكتومة، وكل ضوءٍ صار "شراباً" من الوهم يُسكب في عقول القطيع ليغيبوا عن وعيهم. أدركت أن مهمتها ليست النجاة بل هي "الكشف"؛ أن تكون المِعول الذي يهدم هذا الزيف اللامع .

"إن القوة الحقيقية لا تمنحها العروش، بل تمنحها المعرفة التي تقتل الأوهام. الحقيقةُ قد لا تمنحكِ الخلاص، لكنها تمنحكِ شرف المواجهة".

كانت تلك همسة المدينة الأخيرة لها قبل أن تعبر إلى الأصداء الزائفة

وقفت نِفرا على الحافة، حيث النظر إلى العمق أصعب من المشي على السطح، وحيث القلوب القاسية تدّعي الدفء، والبيوت الباردة تدّعي الأمان .

مرحباً بكِ في عالمٍ لا وجه له.. حيث كل كلمة هي صدىً لزيفٍ قديم، وحيث الرحلة تبدأ الآن، من تحت الجلد، ومن خلف القناع.

إدغار آلان بو:

"كل ما نراه أو نظن أننا نراه ، ليس إلا حُلما داخل حُلم".

- Reality- Perception=Identity

الجزء الثاني: أصداء زائفة

"في إيليترا، كل كلمة تُقال هي صدىً بلا روح، وكل ابتسامة هي قناعٌ يختبئ خلفه صمتُ القلب المتفحم. نحن لا نتحدث لنتواصل، بل نصرخُ لكي نغطي على صوت الانهيار الذي يحدث في الداخل ".

كانت المدينة صامتةً في الظاهر، لكن صمتها كان من ذلك النوع الذي يصرخُ بعنف في أعماق من يجرؤون على النظر خلف الستائر. في "أصداء زائفة"، لم يعد للمادة وزن، بل صار لكل شيءٍ صدى؛ كل خطوة تخطوها نِفرا تترك أثراً لا يُرى بالعين، بل يُسمع بالروح كأنه طعنة في خاصرة السكون. الظلالُ هنا لم تكن مجرد غيابٍ للضوء، بل كانت تتراقص على جدران الشوارع الضيقة كأنها كائنات مستقلة؛ أرواحٌ لم تُولد بعد، أو ربما بقايا أرواحٍ ماتت قبل أن تجد الشجاعة لتعرف نفسها. كل نافذة مغلقة كانت تبدو كعينٍ مطفأة، وكل بابٍ يوحي بأنه يخفي خلفه جريمةً عاطفية، وكل ابتسامة منقوشة على وجوه المارة لم تكن سوى رسالة مبطنة، دعوةٍ للاستغاثة لم يفهمها أحد، ولن يفهمها إلا من تجرأ على سماع "الترددات" التي تقع خارج نطاق البشر العاديين. كانت نِفرا تمشي على ذلك الخط الرفيع والخطير الذي يفصل

بين الضوء والظلال، تشعر بأن المدينة تتحدث إليها بلغةٍ سرية، لغةٍ لا أبجدية لها سوى "الوجوه التي بلا وجوه ."

"الهواءُ في هذا الجزء من المدينة لا يُستنشق، بل يُقرأ. إنه يهمس بأشياء لا تفسرها العقول، كلمات تختبئ في الفراغ بين النسيم والحجر، وبين ضحكات الأطفال المفتعلة وصمت البالغين المرير".

في "أصداء زائفة"، لا توجد حقيقة صلبة؛ كل همسة، كل حركة، كل إيماءة تحمل في طياتها ثقلاً يفوق الاحتمال. المدينة هنا تمارس دور «المعلم القاسي"؛ فهي تعلمك الصمت، لكنها تحرمك من ميزة الاختباء خلفه. كل صمتٍ هنا "يُسمع" بوضوحٍ فاضح، وكل ابتسامة هي في الواقع قنبلة موقوتة قد تقلب العالم رأساً على عقب إذا ما انفجرت الحقيقة من خلفها .

لقد أدركت نِفرا أن هذه ليست مجرد رحلة عبر شوارع، بل هي غوصٌ انتحاري في أعماق ما لم يُكشف بعد. في هذه البقعة من إيليترا، يُمسخ اليقين ويتحول إلى شكٍ دائم، وتخاف الحقيقة من الظهور لأنها تعرف أن الضوء هنا ليس حليفاً لها، بل هو الجلاد الذي سيشوه ملامحها .

"لن تكون الأمور كما تراها عيناكِ، ولن تكون الأرواح كما اعتدتِ أن تعرفيها. في 'أصداء زائفة'، الألفة هي الفخ الأكبر؛ فكل ما يبدو مألوفاً هو في الحقيقة غريبٌ يرتدي ثياباً تعرفينها لكي يغافلكِ ويطعن صدقكِ".

لا مكان للبراءة في هذا المنعطف من الرحلة. الضوء نفسه يبدو متعباً، ينهار تحت وطأة الظلال الكثيفة، تاركاً الإنسان وحيداً في مواجهة صدقٍ مؤلم يمزق أحشاءه، أو وهمٍ بارع يجمّل له وجهه القبيح لكي يستمر في اللعبة. كانت نِفرا تشعر بأن مسام جلدها بدأت تمتص هذا الزيف، وأن كينونتها القديمة بدأت تتلاشى لتفسح المجال لكائنٍ جديد.. كائنٍ لا يصدق الكلمات، بل يطارد الأصداء .

لقد بدأت الرحلة الحقيقية الآن، حيث الصمتُ هو الضجيج الوحيد، وحيث النجاة تعني أن تدرك أنك لم تعد "أنت"، وأن كل ما كنت تظنه "ثباتاً" لم يكن سوى وهمٍ جمّله لك الضوء قبل أن ينطفئ .

" -إن النظر إلى العمق يا نِفرا، هو انتحارٌ بطيء للعين التي اعتادت السطح. فهل أنتِ مستعدة لكي تري الحطام وهو يلمع كأنه الماس؟" مرحباً بكِ في "أصداء زائفة".. حيث الصدى هو الحقيقة الوحيدة، والكلمة هي الكذبة الكبرى.

الباب الأول: الصدى

"كل ابتسامة كانت قناعاً، وكل كلمة كانت صدىً في صحراء صامتة...وفي كل زاوية من زوايا إيليترا، كانت الحقيقة تخنق نفسها، مفضلة الموت في الظل على العيش في ضوءٍ لا يعرف الطهر."

كان العالم حول "نِفرا" يمشي على أطراف أصابعه، كأن المدينة بأكملها خائفة من أن يصدر عنها صوتٌ عفوي واحد قد يكسر هيبة الزيف أو يكشف ما يختبئ في صدور القانطين خلف جدرانها. وجوهٌ ملساء بلا ملامح حقيقية، كلماتٌ مصقولة بعناية فائقة كأنها خرجت من مخرطة باردة، وضحكاتٌ لا روح فيها، تبدو وكأنها صُنعت في "مصانع الضوء" الكبرى لتبهر العيون وتعمي البصائر .

لكن نِفرا لم تكن كغيرها؛ كانت تمتلك تلك اللعنة أو المنحة التي تجعلها ترى ما بين "الشقّ والشق"، ترى ذلك الفراغ الروحي المهول الذي لا يملأه إلا كذبٌ مُتقن يُقدَّم للناس كقربانٍ يومي. الناس هنا في إيليترا لا يتحدثون ليتواصلوا، بل يرتدّ صدى أصواتهم قبل أن ينطقوا بها، يتدرّبون على الابتسامات أمام مرايا لا يثقون في انعكاساتها أصلًا، كأنهم خُلِقوا ليتقنوا "فن الإخفاء" قبل أن يتعلموا أبجديات الإظهار. كانت نِفرا تمشي بينهم وكأنها تعبر مسرحاً من الظلال المتحركة؛ كل جسد تراه كان مجرد ظل، وكل ظل كان يحمل قناعاً، وكل قناع كان يصرخ في وجهها بمعنى واحد مرير: "لا أحد هنا كما يبدو ."

ورغم كل هذا الزيف الذي يحيط بها كدخانٍ كثيف، كان من أعماها صوتٌ آخر، خافتٌ كهمس الفجر لكنه عنيدٌ كجذور الأشجار، يذكّرها بما حفظته في طفولتها، بما تسرّب إلى روحها من نورٍ قديم لم تستطع أضواء المدينة الحديثة أن تطفئه بعد. صوتٌ كان يتردد في خلواتها يقول لها :

-﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

كانت تتوقف فجأة، يداهمها الخوف، وتتساءل بنبرةٍ مرتعشة :

" -أين هو الإحسان في مدينةٍ تبالغ في تزيين وجوهها وتترك قلوب ساكنيها مهجورةً تسكنها الرياح؟ ."

وحين كانت ترى الرياء يغسل الوجوه بدلاً من الماء، كان ينبّهها صوتٌ آخر من أعماقها :

-﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

فتنظر حولها، تفتش بلهفة بين الزحام عن قلبٍ واحدٍ طاهر، فلا تجد إلا أفئدةً غُسلت بماء التملق لا بماء اليقين .

تذكرت "الحياء"، ذلك المفهوم الذي صار في إيليترا كأنه ثوبٌ ضائع أو بضاعة كاسدة في سوقٍ لا يبيع إلا الأرواح المعروضة للبيع. تذكرت قولاً حفظته قديماً: "الحياء لا يأتي إلا بخير"، لكن الخير في هذه الأرض دُفن تحت طبقات كثيفة من الزينة والطلاء، وصار الحياء عيباً اجتماعياً يُخجل منه، والصمت علامة ضعف، والنقاء تهمة تستوجب النفي .

أما "الستر"، فلم يبقَ منه إلا كلمة فارغة يتداولونها لتمرير العيوب وتبرير الخطايا، لا لحماية القلوب المكلومة. كانت تسمع الآية تتمتم في عروقها :

-﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾

فتشعر أن كيان المدينة بالكامل قائمٌ على إشاعة كل ما ينبغي أن يُستر، وتجميل كل ما ينبغي أن يُقبَّح .

والصدق؟ ذلك الضوء الوحيد الذي تمنّت لو استطاعت أن تقبض عليه قبل أن يتبخر. كانت تذكر الوصية الإلهية :

-﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

لكنها في إيليترا، كانت كمن يبحث عن قطرة ماء في تيهٍ من الرماد؛ لم تجد "صادقين" لتلوذ بهم. كانت تراقب بذهول كيف يقول الناس ما لا يقصدون، وكيف يُنفقون أعمارهم في صياغة مجاملاتٍ تبدو كآيات منمقة، بينما نياتهم كذبٌ مُبارك بقواعد المدينة وأعرافها.

رأت امرأةً تمدح صديقتها بإسهاب، وفي عينيها يلمع سكينٌ خفي من الحقد. ورأت رجلاً يبارك لصاحبه بلسانٍ معسول وهو يدفن غصّة الحسد تحت لسانه. كانت ترى ابتساماتٍ كثيرة، تبدو من بعيدٍ طاهرة، لكنها حين تقترب، تتساقط من أطرافها سمومٌ صغيرة لا تقتل الجسد، بل تفتك بالروح. أما الكلمات، فكانت مجرد انعكاسات باهتة على الجدران الصماء؛ تهنئة باردة، مواساة ممجوجة، حديثٌ مليء بالألوان

لكنه فارغٌ من الداخل تماماً، كأن الحقيقة تخجل من نفسها فلا تخرج، أو لعلها تخنق نفسها في المهد كي لا تُدان في هذا العالم المقلوب .

أدركت نِفرا أن إيليترا مبنيةٌ على فلسفة "الصدى"؛ لا صوت أصلي يخرج من القلب، لا معنى أصيل يولد من الوجدان، كل شيء هنا يُعاد، يُردّد، ويُصقل حتى تفقد الحقيقة ملامحها الأولى وتتحول إلى مسخٍ جميل. وفي وسط هذه الواجهات البراقة، فهمت نِفرا أن الصدى ليس مجرد ظاهرة صوتية، بل هو مرضٌ عضال يتوالد في النفوس التي اعتادت أن تخفي وتزيّن وتكدّس الظلال فوق الظلال حتى تنطفئ البصيرة .

توقفت نِفرا فجأة، نظرت للمدينة كما لو كانت تراها للمرة الأولى في حياتها، وهمست لنفسها بسؤالٍ هزّ كيانها :

" -هل يمكن للإنسان أن يظل إنساناً حقاً... حين يصبح كل ما حوله صدى؟ "

هنا بدأ الانكسار الأول، ذلك الشقّ الصغير في قناع العالم الذي سيقودها نحو ما لا يجب أن يُكشف. كانت تشعر في كل خطوة أنها تمشي فوق أرضٍ مبطّنة بالأكاذيب الهشة، والأصوات حولها لم تكن سوى تماثيل من الهواء تتكسّر قبل أن تصل للسمع. حتى الضحكات التي تبدو صافية، كانت ترتطم بأذنيها كأنها ضحكاتٌ تُسحب من حنجرةٍ مُنتحرة، تموت قبل أن تولد .

وقفت أمام مرآةٍ ضخمة تتوسط الساحة، مرآة لا تعكس الحقيقة بل تعكس "ما تريد المدينة أن تراه". رأت نفسها فيها نسخةً مُعدّلة، هادئة، بلا ندوب ولا أسئلة حارقة، فسمعت آيةً تخرج من أعماقها :

-﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

كأن الآية لمست حافة المرآة فصدّعتها، لكن المدينة لا تهتز، فهي مدينة لا تخاف الخالق بقدر ما تخاف انكشاف عوراتها أمام بعضها البعض. مرّت امرأةٌ أمامها، ثوبٌ مرصع وكلامٌ يقطر عذوبة، لكن عينيها كانتا تنطقان بحقدٍ دفين ورغبةٍ يائسة في أن تكون "الأفضل" بأي ثمن. ومرّ رجلٌ يرفع عقيرته بالنصح، يتحدث عن الأخلاق والطهر، لكن نِفرا لمحت ارتعاش يده حين لمس جيبه، كأن سراً دنيئاً ينهش ضلوعه. تذكرت قوله تعالى :

-﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

وهمست :

" -ما أكثر القائلين... وما أندر الفاعلين ."

في إيليترا، الكلمات أثقل من القلوب، والقلوب أخف من الهباء. لا أحد يجرؤ على أن يكون صادقاً، حتى مع نفسه في عتمة الليل. سألت نفسها بمرارة :

" -هل يخدعون الناس؟ أم أنهم من فرط التمثيل أصبحوا كذبةً تمشي فوق قدمين؟ ."

تدفقت الضوضاء من حولها؛ موسيقى، هتافات، تبريكات، أغانٍ تطفو فوق هواء المدينة الخانق، لكن داخلها كان صامتاً صمتاً ثقيلاً لدرجة الرعب.

وقفت في الساحة، وأطلقت سؤالاً خافتاً للهواء :

" -مَن منكم صادق؟ ."

لم يجبها أحد، بل عاد إليها الصدى وحده، مشوهاً، ناقصاً، وبارداً كالجثث، كأن المدينة تقول لها :

" -الصدقُ انتحارٌ هنا ."

أحست بشيءٍ يضغط على صدرها، حزنٌ أعمق من البكاء، وخوفٌ ليس من الآخرين بل من "العدوى"؛ خوفٌ من أن تصبح هي أيضاً مجرد صدى. تذكرت الحديث :

" -إن المؤمن يَرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مرّ على أنفه."

ورأت أهل المدينة يمسحون ذباب خطاياهم بلامبالاة، بينما الجبل يوشك أن يطبق على أنفاس الجميع .

رفعت نِفرا رأسها للسماء الملبّدة بالضوء المزيف، وقالت كعهد أبدي: - "لن أكون صدى. إن كان عليّ أن أكون صوتاً مكسوراً فليكن، المهم أن يكون صوتي لي ."

عند تلك النقطة، بدأ الباب الأول ينغلق ببطء، لا لأن الرحلة انتهت، بل لأن الحقيقة بدأت تتكشف بفظاعتها. وأمامها، كانت الواجهات تنتظر بوجوهٍ جديدة وأكاذيب أكثر أناقة. كانت تظن أنها فهمت اللعبة، لكن إيليترا مدينة تتقن الخداع لدرجة تجعل الخداع نفسه يصدق أنه حقيقة .

بين الأزقة، كانت الأصوات ترتطم بالجدران وتعود كأنفاس مجهولة. رأت طفلاً تبتسم والدته للناس بينما تضغط على ذراعه بقسوة، ورأت فتاة تمدح صديقتها بكلمات تشبه الإهانات المغلّفة. همست :

" -لو كانت القلوب مرآة، لانهار الناس عند أول انعكاس ."

وقفت عند بوابة كبيرة، محفور عليها بنقشٍ منسي :

"- كل ما يُقال لا يُقصَد ."

ابتسمت بإنهاك، وتساءلت :

" -وهل بقي شيءٌ يُقصد في هذا العالم؟ ."

رأت الناس يستخدمون الدين لا للتقرب من الله، بل للابتعاد عن لوم البشر، يخفون سوءهم خلف آية، وضعفهم خلف حكمة .

فقالت :

" -الحياء الذي يُقال ليس هو الحياء الذي يُعاش ."

مرّت بفتى يكتب تعليقات لطيفة على هاتفه بينما قلبه يقطر غلاً، فتمتمت بحديث النبي ﷺ :

" -ليس الشديد بالصرعة... إنما الشديد الذي يملك نفسه."

وتساءلت بضياع :

" -ومن يملك نفسه في مدينةٍ تسرق منك روحك قبل أن تشعر؟ ."

أدركت نِفرا أن الباب الأول لم يكن سوى "امتحان الصدق" في زمن الندرة. وأن من يرى الحقيقة عارية لا يعود أبداً كما كان. رفعت صوتها الداخلي في وجه المدينة :

" -لن أكون جزءاً من قناعكم ."

فاهتزّ الصدى ساخراً :

" -لكنّكِ تعيشين بيننا.. وستصبحين مثلنا ."

انطفأ ضوء الباب الأول، وبدأت ملامح الباب الثاني تظهر؛ أكثر ضيقاً، وأكثر قرباً من العظم. وحين أغلقت نِفرا باب الواجهات خلفها، واجهت الحقيقة المرعبة :

"إن أخطر الأقنعة ليست تلك التي نرتديها في الشوارع، بل تلك التي نجدها في البيوت، حيث يرتجف الصدق تحت البلاط الفاخر ."

الباب الثاني: البيت الصامت

"البيوتُ التي تخشى ضجيج الشوارع، وتوصد أبوابها في وجه الغرباء، ليست دوماً قلاعاً للأمان، بل هي أحياناً مدافنُ فاخرة تُخفي في أحشائها ضجيجاً أخطر.. ضجيج الأرواح التي تنهش بعضها البعض في صمتٍ مقدس ".

كان يُفترض بالبيت أن يكون الملاذ، الكهف الذي يأوي إليه الإنسان ليخلع دروعه ويغسل تعب المدينة عن كاهله. لكن في إيليترا، كان صمتُ الجدران داخل البيوت صاخباً لدرجة الجنون.. صاخباً بكل ما يُدفن تحت البلاط من نفاق، وبكل ما ينمو خلف الستائر من غيرةٍ مسمومة، وحسدٍ يرتدي عباءة المودة ليواري قبحه .

دخلت نِفرا، فاستقبلتها الوجوه المُبتسمة والتحيات المحفوظة سلفاً، كلماتٌ تم ترتيبها كقطع الشطرنج لحوض معركةٍ لا يراها أحد. رأت خلف تلك الابتسامات "خطفاً للنور"؛ رغبةً خفية ومسعورة في أن تتعثر، في أن تفشل، في أن تُسلب منها الفرحة قبل أن تصل إلى عروقها. في هذا البيت، صار الحديث عن "الزواج" كأنه رهينة في لعبة نفوذ حقيرة؛ فالجميع يعلم أن القرار ليس للقلب، بل لمن يملك القدرة على التحكّم في "الصورة" أمام المجتمع. أما "الطلاق"، فقد ثقله وصار كالهواء العابر، تُهدر فيه القيم وتُباع فيه الذمم على ميزانٍ لا يعرف العدل، ميزانٍ لا يزن إلا الأنانية .

"والحب؟ "يا للهول! صار الحب مجرد كلمة مُعاد تدويرها، تُهمس في الزوايا لتغطي على رائحة الأحقاد، وتُستخدم كطُعمٍ لاصطياد المصالح. في هذا البيت، كل فرد هو سجينُ قفصٍ من المظاهر، وكل حركة هي استعراضٌ مدروس.

رأت نِفرا "الأم" وهي تبتسم لابنتها، لكن عين الأم كانت تبثُّ في صمتٍ تمنياتٍ بزوال النعمة، غيرةً خفية من شبابٍ فاتها أو سعادةٍ تظن أنها لا تستحقها. ورأت "الأب" يتظاهر بالحرص الأبوي، بينما يداه ترتجفان رغبةً في السيطرة المطلقة، ليكون هو السيد والمالك والمتحكم في مصائر الأرواح التي تحت سقفه. أما "الإخوة".. فيا لحزن القلب عليهم! يتنافسون على الإرث قبل أن يموت المورث، يتطاحنون على الاهتمام، وعلى النفوذ، وعلى فتاتٍ عاطفةٍ زائفة .

تذكرت نِفرا آية الله العظيمة :

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

فبكت روحها سراً، فالإخوة هنا ليسوا إلا منافسين يراقبون بعضهم البعض، ينتظرون لحظة سقوط الآخر ليقفزوا فوق أنقاضه. وتذكرت قول النبي ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً"، لكن بنيان هذا البيت كان هشاً، مفككاً، كل حجر فيه يريد أن يدهس الحجر الذي بجانبه. كل قلبٍ يضرب الآخر بصمت، وكل روح تريد أن تعلو بتمزيق أجنحة رفيقتها .

جلست نِفرا، فشعرت ببرودةٍ تخترق مسام جلدها، لم تكن برودة طقس، بل كانت برودة "الأرواح السامة". هذا البيت يطحن الإنسان، يعلمه أن النفاق هو "الذكاء"، وأن الغيرة هي "الطموح"، وأن الحسد هو "حق مشروع". السعادة والحرية والوفاء؟ هي مجرد حكايات خرافية تُروى للأطفال قبل النوم، لكنها تُذبح كل صباح عند مائدة الإفطار.

"لم يكن كل بيت في إيليترا هكذا، لكن الغالبية الساحقة صارت كقطع الدومينو، تتساقط واحدة تلو الأخرى في بئر الأنانية. كل نزاع يدور حول 'الورث'.. الأرواح تتقاتل على حفنة تراب، والأخ يطعن أخاه بابتسامةٍ باردة ليضمن نصيبه من الصفقة ".

حتى "الخيانة" لم تعد فاجعة، بل صارت فعلاً يومياً يُمارس تحت غطاء الشرعية أو الضرورة. الأخ يخون أخاه، والأم تفضّل ولداً وتنبذ آخر بلا أدنى حرج، والقيم المعلنة صارت مجرد لافتات مهترئة في مزبلة الصمت. "الرجولة" صارت عنواناً فارغاً على جدار، و"الأنوثة" تحولت إلى أداةٍ للبيع والشراء والاستغلال.

أحست نِفرا بغصةٍ تخنقها، مزيج من الحزن والاشمئزاز؛ فالبيت يئن، والجدران تسمع صراخ الأرواح التي لم تُدفن بعد، تلك التي هوت في بئر الطمع. الابتسامات والمجاملات هي مجرد "صدىً مزيف" يُخفي وراءه دماً وصراعاً وألماً لا يُقال. وفي كل زاوية، تختنق الحقيقة وتنتظر من يجرؤ على كشف الغطاء عنها، لكن القلة فقط هم من يملكون تلك الشجاعة.. ونِفرا كانت تشعر أنها واحدة من هؤلاء الغرباء.

أغمضت عينيها، فشعرت بثقل المدينة بأكملها يضغط على جدران هذا البيت. تعلمت في قلب إيليترا أن الوعود هي أوهام، والوفاء هو مجرد ظل، والقلوب لا تصافح بعضها إلا في العتمة لتتأكد من مكان الطعنة القادمة. وقفت في منتصف الصالة، تتأمل الوجوه التي تحيط بها، وأدركت أن البيت ليس إلا "نسخة مصغرة" من الجحيم اللامع الذي في الخارج .

الحب هنا لعبة، والعلاقات تجارة، والوعود تُكسر بدمٍ بارد ما دامت المظاهر بخير. أخذت نِفرا نفساً عميقاً، وشعرت بوخز الحقيقة يلسع روحها :

" -الحياة في إيليترا هي سلسلة من الأقنعة التي لا تنتهي ."

ومع هذا الإدراك الثقيل الذي كاد يحطم أضلاعها، أدركت أن القادم سيكون أكثر ظلاماً، حيث الحب نفسه سيتحول إلى مرآةٍ للزيف، وحيث القلوب تتقابل لتتصارع لا لتعانق. كان الباب الثالث ينتظرها في الأفق، صامتاً، لكن صمته كان يصرخ في وجهها :

" -مرحباً بكِ في عالم 'عشق الزيف'.. حيث الأرواح تتعارف في النور، لكنها لا تتصافح إلا في الظلال ".

الباب الثالث: القلب المكسور في الظل

"في إيليترا، لا يكسرُ الحبُّ القلوبَ حين ينتهي، بل يكسرها حين يبدأ، لأنه يولدُ من رَحِم الخوف، ويقتاتُ على مائدة الكذب، ويموتُ قبل أن يجرؤ أحدٌ على تسميته باسمه الحقيقي ".

كانت إيليترا في ذلك المساء البارد تبدو هادئةً على السطح، هدوء القبور التي طُليت بالمرمر، لكن في أحشائها كانت تضجُّ بعواصف من الزيف لا تُرى بالعين المجردة. كان الهواء نفسه قد تعلّم الكذب، يمرُّ بالرئتين فيتركهما مثقلتين بغبار الأوهام. مشت نِفرا، وشعرت بأن خطواتها تُحدث صدىً غريباً، ليس صوت ارتطام حذائها بالأرض بل هو صدى قلبٍ مكلوم يتساءل بمرارة :

" -لماذا يرتدي الناس أجمل ما عندهم في الحب، ليكشفوا عن أقبح ما فيهم حين يتملكون؟ لماذا صار القلب في هذه المدينة مسرحاً بائساً يتدرّب عليه الجميع، ثم يغادرونه حين تنطفئ الأضواء؟ ."

كانت تمشي وكأنها تخترق مقبرة للأرواح الحيّة. الوجوهُ من حولها تبتسم، لكن الابتسامات كانت تشبه الندوب التي لم تندمل، محاولات يائسة لإخفاء نزيفٍ داخلي لا يتوقف. دخلت مقهىً صغيراً، تفوح منه رائحة القهوة الممزوجة بأكاذيب ناعمة تُسكب في الآذان كالشهد المسموم .

هناك، رأت "رادين"، كان يجلس بثقة الرجل الذي أتقن فن إخفاء ذعره خلف قناعٍ من الهدوء. ابتسامته كانت واسعة، لكنها واسعة كبابٍ يُفضي إلى غرفٍ مظلمة موصدة. قال لها بنبرةٍ مدروسة :

" -أنتِ تبدين مختلفة اليوم ."

ضحكت نِفرا بمرارة، لم تكن ضحكة مرح، بل كانت ضحكة السخرية من جملةٍ سمعتها من ألف رجلٍ قبله، وكلهم كانوا يقصدون المعنى ذاته :

" -أنتِ مشروع جديد لملء فراغي، أنتِ الضحية القادمة لشهوة الامتلاك ."

أجابته بصوتٍ يخرج من عمق صمتها :

" -وهل يعرفك أحدٌ هنا حقاً حتى يدرك الفرق بيني وبين ظلّي؟ ."

بَهت الذي كذب، ونظر إليها بدهشةٍ لم تدم طويلاً، فلا أحد في إيليترا يفهم المعاني التي لا يمكن مقايضتها بالمال أو بالمتعة .

"ثم ظهرت 'إليانا'.. تلك المرأة التي تتقن تحويل العاطفة إلى خيوطٍ تحرك بها الدمى البشرية. وضعت يدها على كتف رادين كأنها تختم صك ملكية، وابتسمت لنِفرا ابتسامة مَن يملك القدرة على هدمكِ دون أن يطرف له جفن ".

شعرت نِفرا بالاشمئزاز، المشهدُ كله كان مكتوباً مسبقاً في سيناريو المدينة العفن: امرأة تتظاهر بالوجد، رجل يتظاهر بالوفاء، وجلسة تدّعي الدفء بينما كل ما فيها صقيعٌ ينهش العظام. انتحت جانباً، وضعت يدها على صدرها، ليس لمرضٍ ألمّ بها، بل لأنها أحست بأن قلبها قد

تحول إلى "صندوق بريد" مهجور، تُلقى فيه خيباتُ الغرباء الذين عبروا حياتها ومضوا .

همست لنفسها وسط ضجيج المقهى :

" -يا للسخرية! يبحثون عن الحب كما يبحث الأعمى عن مرآة؛ يريدون قلباً بلا عمق، وعاطفةً بلا تبعات، ووفاءً لا يضطرون لدفع ثمنه من صدقهم."

رأت رادين يميل نحو إليانا، ورأت إليانا تتقن دور "المهتمة"، وأدركت أن كل لمسة كانت "وظيفة"، وكل كلمة كانت "غرضاً". شعرت بما يشبه القيء الروحي؛ غثيانٌ لا يزول بماء الأرض، بل ينبع من رؤية المشاعر وهي تُباع في مزاد علني .

خرجت نِفرا إلى البرد، وكان الهواء البارد أصدق من كل الوجوه التي تركتها خلفها. وقفت أمام نافذة منزلٍ مضاء، رأت رجلاً وامرأة يضحكان، لكن "عين الحقيقة" فيها كشفت المستور: عينا الرجل تبحثان عن طريدةٍ أخرى خلف جدران البيت، وعينا المرأة تبحثان عن حيلةٍ لتقييد ظله قبل أن يهرب .

"في إيليترا، لا أحد يحبُّ أحداً. الجميع متورطٌ في 'فوبيا' الفراغ؛ يهربون من الوحدة بالوحدة، ومن الصمت بالكذب، ويخافون أن يقولوا: 'أنا بحاجةٍ إليك' لكي لا يُسلبوا كبرياءهم الزائف ".

وفجأة، صرخ فيها صوتٌ مهمل في أعماقها :

" -وماذا عنكِ أنتِ يا نِفرا؟ ألسْتِ نسخةً أكثر احترافاً في الهرب؟". تجمدت مكانها. هل كانت حقاً أفضل منهم؟ أم أنها مجرد نسخةٍ صامتة، تخفي هشاشتها خلف جدارٍ من النقد والاشمئزاز؟

اعترفت بمرارة :

" - نعم، أنا أخاف. أخاف أن أمنح روحي لمن يبيعها في سوق النخاسة العاطفية بمليماتٍ من الوهم ."

واصلت السير، والظلالُ على الرصيف تمددت كأنها أرواحٌ خذلها أصحابها فتركوها خلفهم. تذكرت آخر كلمة "أحبك" سمعتها، لم تكن عهداً، بل كانت "جملة مرتجلة" قالها عابر سبيل لأن اللحظة كانت تقتضي ذلك. قالت بصوتٍ مسموع :

" -الحب في هذه المدينة يشبه تجارة الظلال، لا يُشترى إلا بالخفاء ولا يُباع إلا حين يفقد بريقه الزائف ."

سمعت ضحكات العشاق في الأزقة، فبدت لها كصفير ريحٍ في ممرٍ مهجور. يتحدثون عن التضحية والقدر، وهم يحفظون نصوصاً معلبة من كتبٍ لم تُكتب بمداد القلب. رأت امرأةً تقول لحبيبها :

"أنت عالمي"، ثم تذهب لتجهش بالبكاء لأن عالمها خذلها عند أول منعطف. ورأت رجلاً يقسم بالبقاء، ثم يختفي عند أول بابٍ موارب .

"الحبُّ لم يعد حباً في إيليترا، لقد صار 'خوفاً من الوحدة'. وأيُّ شيءٍ يولدُ من رَحِم الخوف، يولدُ مشوهاً، ناقصاً، ومعاقاً عن الطيران ".

كانت نِفرا تشعر أن الحقيقة ثقيلة جداً، لذا يفضل الناس "الصدى"؛ يفضلون الشعور بالاهتمام لا الاهتمام نفسه، والكلمات لا معانيها. رأت رسائل الحب في الأيدي والرياء في العيون. أدركت، كما يقول دوستويفسكي في أشد لحظات تجليه، أن الناس لا يريدون الحقيقة لأنها "لا تمنحهم الأعذار"، بينما الكذب يمنحهم دفئاً مؤقتاً ويوهمهم بأنهم مرغوبون .

سمعت امرأةً تبكي خلف جدار :

" -قال إنه يحبني، لماذا رحل؟ ."

فكرت نِفرا :

" -لأن كلمة 'أحبك' في إيليترا هي جواز سفر، وليست موثقاً غليظاً ."

الناس لا ينكسرون من الحب، بل ينكسرون من "سقف التوقعات" الذي بنوه فوق رمالٍ متحركة. يدمرهم الأمل الذي وضعوه في أشخاصٍ بلا جذور .

ابتسمت نِفرا ابتسامةً خفية لم يفهمها أحد، وهمست:

"-ربما لا أخاف من الحب، بل أخاف من قدرتي على تصديق مَن يدّعيه."

لقد بدأت تفهم أن "الفهم" هو اللعنة الكبرى؛ فكلما اتضحت الرؤية، زاد الشعور بالغربة .

رأت العشاق يحملون في صدورهم "مقابر صغيرة" لوعودٍ وُلدت ميتة، ولمشاعر قُرضت كأنها طعامٌ لحيوانٍ جائع. وقفت في نهاية الممر المظلم، تنفست بعمق، وشعرت بأنها تخرج من زجاجةٍ خانقة .

"لا يوجدُ قلبٌ ينكسرُ مرتين؛ ففي المرة الثانية، يتصلبُ القلبُ ليتحول إلى حجرٍ لا تخدشه الوعود الباردة".

لكن نِفرا لم تكن تعلم أن هذا الانهيار ليس النهاية. الخطر الحقيقي لم يكن في "رادين" ولا "إيليانا"، ولا في خيانة العشاق. الخطرُ كان يكمنُ في "الأسئلة" التي بدأت تنهش صدرها هي، في الظلال التي تحمل ملامحها، وفي الليل الذي بدأ يهمس لها :

" -لقد انتهى عهد مراقبة الآخرين.. حان وقتُ مواجهةِ 'نِفرا'.. حان وقتُ فتح الباب الذي لا يجرؤ أحدٌ على طرقِه: باب الذات ".

"إذا كان الصدى هو كل ما تسمعه ، فهل أنت واثق من أن صوتك الأصلي لا يزال موجود؟".

- Repetitions # Truth

الجزء الثالث: ما قبل الشقّ

"الانكسارُ الحقيقي لا يبدأ حين تسقطُ على الأرض أمام الجميع، بل يبدأ في اللحظة التي تكتشفُ فيها أنك واقفٌ منذ زمنٍ طويل فوق شقٍّ غائرٍ في روحك.. شقّ لم تنتبه له لأنك كنتَ مشغولاً بمراقبةِ شقوقِ الآخرين ".

لم يكن الانكسار لحظةً واحدة مدوية، ولا صرخةً تمزق جدار الصمت كما يتخيل الساذجون الذين يظنون أن الألم دائماً ما يترك ضجيجاً خلفه. بالنسبة لنِفرا، جاء الانكسار هادئاً، بطيئاً، وثقيلاً، كضيفٍ غير مرغوب فيه جلس في ركن صدرها دون أن يطرق الباب، وبدأ ببرودٍ يغير ترتيب الأشياء في داخلها، قطعةً قطعة، دون أن يترك وراءه أي فوضى ظاهرة للعيان .

كانت نِفرا تمشي في شوارع إيليترا كما تمشي الأرواح التي نسيت تماماً كيف كانت حيّة. لم يعد لوجهها معنى، ليس لأن ملامحها تلاشت، بل لأن الملامح في هذه المدينة صارت عبئاً زائداً، مجرد قشرة مكررة لا قيمة لها وسط آلاف الوجوه المتشابهة. أما الروح، فهي القلعة الوحيدة التي لم تستطع المدينة انتزاعها منها.. بعد، لكنها كانت قلعةً محاصرة بالشك .

لم تكن نِفرا حزينة بالمعنى التقليدي للحزن، ولا غاضبة، ولا حتى يائسة. كانت فقط "منكسرة دون حادث"، وهذا هو أخطر أنواع الانهيار الإنساني؛ أن تجد نفسك محطماً دون سبب واضح، وأن تُضطر رغم ذلك إلى تحمّل كامل العاقبة وكامل الألم، وحدك .

"في البداية، حاولت خداع نفسها؛ ظنت أن ما تشعر به مجرد تعب عابر، إرهاق ناتج عن التفكير المفرط، أو ربما حساسية مفرطة تجاه عالمٍ قبيح لا يشبه طهرها المتخيل. لكن التعب لا يسكن القلب بتلك الطريقة، ولا يزرع ثقله في المسام، ولا يجعل الإنسان يرتجفُ رعباً كلما التقت عيناه بمرآة ".

كانت تسمع صوتاً خافتاً ينبعث من دهاليز نفسها، صوت لا يصرخ ولا يحتج، بل يهمس بنبرةٍ باردة تجمد الدماء في العروق. همسٌ يقول لها :

"-أنتِ لستِ بالنقاء الذي تظنينه يا نِفرا.. وأنتِ لستِ بريئة كما تحبين أن تتخيلي في روايتكِ الخاصة ."

وهنا، في تلك النقطة تحديداً، بدأ الخوف الحقيقي. لم يعد الخوف من المدينة، ولا من قوانين الزيف الصارخة، ولا من الأقنعة التي يرتديها المارة. الخوف صار من تلك اللحظة المرعبة التي يلتفت فيها الإنسان إلى الداخل، فيكتشف أن شيئاً ما قد تغيّر فيه دون إذنه، وأن العدو الذي كان ينتقده في الخارج قد استوطن في الداخل .

كانت نِفرا تشعر أن إيليترا تسللت إليها كما يتسلل الدخان، بلا صوت، بلا أثر ملموس، لكن مع اختناقٍ يتزايد في كل شهيق. كأن تلك "القيم" التي كانت تسخر منها في الشوارع بدأت تترك بصماتها السوداء على جدران روحها. كأن الزيف الذي كانت ترصده في عيون الآخرين صار يشككها في أصالة مشاعرها هي. وهل هناك عذابٌ في هذا الوجود أشد من أن يشكّ الإنسان في "نقاء روحه"؟

"لم تكن نِفرا تطمح لأن تكون أفضل من أحد، ولا أن تنقذ إيليترا من غرقها، ولا أن تشعل ثورةً في الميادين. كانت تريد شيئاً واحداً أبسط وأعقد: أن تفهم. هل ما تشعر به هو قمة الوعي أم هو بداية المرض؟ هل الاختلاف الذي تعيشه نعمةٌ تحميها، أم لعنةٌ ستقتلها؟ وهل يُكافأ الإنسان لأنه رأى الحقيقة عارية، أم يُعاقب لأنه لم يعد قادراً على التعايش مع 'كذبة' مريحة؟ "

في هذا الجزء من الرحلة، لن تبحث نِفرا عن إجابات، ولن تواجه أحداً بكذبه، ولن تفضح زيف الواجهات. ستجلس وحيدةً تماماً، في مواجهة تلك المرأة التي تسكن داخلها. ستُجبر للمرة الأولى على النظر طويلاً وعميقاً في ذلك "الفراغ" الذي أمضت حياتها وهي تهرب منه وتملؤه بمراقبة الآخرين .

هنا، في "ما قبل الشقّ"، لا توجد مدينة تُدان، ولا مجتمع يُنتقد، ولا أقنعة تُسقط عن وجوه الغرباء. هنا، المتهم الوحيد هو الذات، والقاضي هو الضمير المثقل، والزنزانة هي الحقيقة التي لا مفر منها .

هنا.. يبدأ الانكسار الحقيقي. الانكسار الذي سيؤدي إما إلى التلاشي التام، أو إلى ولادةٍ جديدة من رحم الحطام .

الباب الأول: ابتسامة مطموسة

"أخطرُ الأقنعةِ تلك التي نرتديها حتى ونحنُ وحدنا، لأننا حينها لا نخدعُ العالم، بل نرتكبُ جريمةَ نسيانِ ملامحنا الحقيقية".

المدينةُ في إيليترا لم تكن بحاجةٍ إلى ضجيجٍ خارجي لكي تدرك حجم فجيعتها، فكلُ شيءٍ فيها كان صامتاً، لكنه صمتٌ من النوع الذي لا يمنح السكينة، بل ينهشُ الأطراف ويجعلُ القلبَ يئنُّ من وطأةِ الثقل. المارةُ يعبرون الأرصفة كأنهم أشباحٌ في غيبوبةٍ جماعية، وجوههم متطابقةٌ حدَّ الفزع، حتى لم تعد نِفرا تدري أين تنتهي حدودُ الآخرين وأين تبدأُ هي. توقفت نِفرا في منتصف الزحام الصامت، وسألت الفراغ:

"-هل أنا الوحيدة التي ترى هذا الثقب الأسود الذي يبتلعنا؟ أم أن الجميع هنا قد تآلفوا مع هذا الصمت المريب؟ "

ارتسمت على شفتيها ابتسامة، لكنها لم تكن تشبه الابتسامات في شيء. كانت "سطحاً مطموساً"، فعلاً ميكانيكياً زائفاً، كغشاءٍ رقيقٍ وشفاف يحاولُ بأساً منع الانهيار الداخلي من الظهور للعلن. ضحكت لنفسها، ضحكةً بلا سبب، لم تكن تلاحظ أحداً، والأدهى أنها لم تكن تلاحظ حتى نفسها. همست بذهول :

"-ضحك؟ لماذا أضحك الآن؟ لا شيء هنا يستحقُ المداعبة. كلُ شيءٍ.. كلُ شيءٍ هنا هو محضُ زيف ".

في كل مرآةٍ مرت بجانبها، لم يعكس الزجاجُ بريقَ ابتسامتها، بل عكس "شقّاً" من صمتها العميق، كسطرٍ في روايةٍ لم يجرؤ أحدٌ على كتابته بعد. شعرت نِفرا بأن كيمياء المدينة بدأت تتسللُ إلى مسامها؛ الهواءُ صار يضغطُ على صدرها كأن الرئةَ لم تعد ملكاً لها، كأن المدينة هي التي تتنفس من خلالها، وليس حولها. كل همسٍ بعيد، كل ضحكةٍ خافتة، كان لها "صدىً" غريب في أعماقها، صدىً لا يخصها، بل يهمس بلغةٍ غامضة :

"-أنتِ لستِ مختلفة.. أنتِ مثلنا.. أنتِ مجرد نسخةٍ أخرى لم تكتمل بعد ".

ارتجفت نِفرا :

"-نسخة؟ نسخةٌ من ماذا؟ هل أنا مجرد تكرارٍ لهؤلاء؟ من أنا حقاً؟"

لم تكن تملك الرغبة في المقاومة، ولا حتى في الفهم. كانت رغبتها الوحيدة أن تتكمش على صمتها، أن تحفظ قطعةً صغيرة من روحها لم تلمسها يدُ المدينة بعد. لكن كل خطوةٍ كانت تسرّبُ هذا الغطاء الزائف، وكأن الوجود نفسه يصرخُ فيها :

"-الحقائقُ ليست هنا، ولا أنتِ موجودةٌ كما تظنين ".

"الابتسامةُ المطموسة لم تكن وجهاً، ولم تكن شعوراً؛ كانت مجرد 'علامة حضور' في عالمٍ غائب. وجودٌ بلا وعيٍ كامل، يراقب نفسه من بعيد كأن الروح قد انفصلت عن الجسد وضاعت في زقاقٍ خلفي".

الخوفُ الحقيقي لم يكن من المدينة، بل من تلك "النواة" الصغيرة التي بدأت ترتجفُ داخلها بلا سبب واضح. شعرت بأن الجدران تتنفس، وبأن الأرض تراقب شهيقها وزفيرها. سألت نفسها وهي تجلس على حافة الرصيف البارد :

"-هل أنا أتنفسُ الهواء.. أم أن الهواء هو الذي يستهلكني؟"

رأت انعكاسها في زجاج محلٍ تجاري، لكنها لم تتعرف على الشخصية الواقفة هناك. كانت صورةً ضبابية، بلا ملامح واضحة، بلا روح. كانت "ظلّاً" لما تحاولُ أن تكونه. ثم، فجأة، شعرت بالانفصام التام؛ هي معلقةٌ بين عالمين: عالمٌ خارجي يشبه الحياة، وعالمٌ داخلي ينهارُ كبيتٍ من ورق. لكن الوقوف لم يكن خياراً. حين نهضت، لم تكن المدينة كما كانت قبل لحظات. لم يتغير شيءٌ في الخارج، لكن "الصدع" الدقيق قد حدث في الداخل. مشت نِفرا، وهذه المرة كانت واعيةً بثقل كل خطوة، بوقع حذائها الذي صار يقرعُ طبلَ ذاكرتها. نظرت إلى واجهات المحلات، فلم تجد الزجاج شفافاً، بل وجدته "ملوثاً"؛ يشوّه الصور، يمدد الأجساد، ويحني الوجوه بزوايا خاطئة. توقفت نِفرا وأدركت الحقيقة المرة :

"-إذاً.. لم تكن المرآة كاذبة يوماً. أنا التي كنتُ أنظر بسطحية".

بدأت ترى الشقوق في وجوه الآخرين، والنظرات المكسورة التي يدارونها خلف المساحيق. لم تعد المدينة تبتلعها، بل بدأت المدينةُ "تتعرّى" أمام عينيها. الابتسامةُ المطموسة اختفت تماماً، لا لأن نِفرا حزنت، بل لأنها أدركت أن القناع لم يعد يصلح للاستعمال؛ لقد تآكل من الأطراف ولم يعد يغطي الفراغ .

هكذا انتهى الباب الأول؛ ليس بصرخةٍ، بل بفقدان الثقة التام في كل ما تراه العين. وأمام نِفرا، فُتح الباب الثاني ببطءٍ مهيب: "انعكاسٌ ملوث".. حيث لا تعود تسأل :

"-من أنا؟"، بل تسأل بمرارة :

"-أيُّ صورةٍ من صوري السابقة كانت الكذبة الأكبر؟"

الباب الثاني: انعكاس ملوث

"حين تلوّثك المدينة، لا تترك أثرها القذر على يديك لكي تغسله بالماء.. بل تتركه على صورتك عن نفسك، لتجعل المرآة عدوَّك اللدود الذي لا تستطيع منه فراراً."

المرآةُ أمام نِفرا لم تكن مجرد زجاجٍ مصقول، كانت صمتاً مطبقاً يتجاوز في عمقه كل ما مرّت به. وقفت أمامها، والرجفةُ تسري في أوصالها، لم تعد تعرف إن كانت تبحث عن "بقاياها" أم أنها تبحث عن "الحقيقة" التي ستقذف بها إلى حافة الجنون .

لم يكن الانعكاسُ مجرد صورةٍ ضوئية، كان كياناً حياً، مظلماً، نابضاً بكل المخاوف التي حاولت وأدها، وبكل الحقائق التي أنكرتها طوال سنواتها في إيليترا. سألت نِفرا بتهدج :

"-هل هذا أنا حقاً؟ أم أنني فقدتُ القدرة على التعرف على ملامحي وسط هذا الركام؟ "

الانعكاسُ لم يجبها بكلمات، بل بابتسامةٍ باردة، تلك "الابتسامة المطموسة" التي اعتادت أن تضعها كدرعٍ يحميها من نظرات الغرباء. لكن المرآة قالت لها بصمتٍ لا يرحم :

"- كل ما كنتِ تعتقدينه يقيناً كان كذبةً مريحة، وكل ما أخفيتهِ في سراديب نفسكِ صار الآن عارياً تماماً ".

رفعت نِفرا يدها المرتجفة، لمست سطح الزجاج البارد، لكنها لم تشعر بملمس الزجاج؛ شعرت بشيءٍ أكثر كثافة، أكثر ظلمة، وأكثر حقيقة. لمست "ظلها الملوث"، قلبها الممزق الذي لم يكن له وجه والذي بدأ يحدق فيها بصمتٍ يصرخ :

"-ها قد ظهرتِ أخيراً بلا قناع.. بلا فراغٍ مخفي.. بلا أوهام تتدثرين بها ".

الهواءُ حولها استحال رصاصاً، كل شهيقٍ كان استنشاقاً لسموم المدينة، وكل زفيرٍ كان تسريباً لقطعةٍ من روحها في زحام الشوارع. الوجوه التي كانت تراها متطابقة في الخارج، صارت الآن أجزاءً من حقيقتها المشوهة. لم تعد نِفرا قادرةً على الهرب؛ فكل خطوةٍ للخلف تعني ارتطاماً بجدارِ ذاتها الممزقة. المرآة لم تكن تكذب، بل كانت تختبرُ حدود احتمالها للصدق العاري. فجأة، بدأ الانعكاسُ يتحركُ باستقلاليةٍ مرعبة؛ ينسخُ حركاتها لكنه يضيفُ عليها "لمسة التعفن": عيونٌ غائرة لا قرار لها، شفتان شاحبتان كالموت، ويدٌ تترنح بلا سبب. صرخت نِفرا في وجدانها :

"-لماذا كل شيءٍ كاذب؟ أين أنا؟ وأين الحقيقة التي ضاعت بين الصمت والظل؟ "

المدينةُ صمتت لتسمع أنينها. وفي هذا الصمت، بدأت الدروسُ تتساقطُ على رأسها كالمطر الحمضي :

• الدرس الأول: الابتسامةُ المطموسة قد تخدعُ العابرين، لكنها تفشلُ دوماً في حجبِ الحقيقةِ عن صاحبها .

• الدرس الثاني: الظلامُ الأكبر ليس في أزقة إيليترا، بل في ذلك الركن الذي نرفضُ إنارته داخلنا .

• الدرس الثالث: الفقدان ليس نهايةً، بل هو "انقشاعُ الضباب" لتروي الحقيقة كما هي، لا كما تحبين .

• الدرس الرابع: الصدقُ مع النفس هو المعركةُ الوحيدة التي لا يخرجُ منها أحدٌ منتصراً دون أن يُجرح .

• الدرس الخامس: الحقيقةُ لا تُفرضُ بالقوة؛ بل تُستوعبُ حين تنهارُ كل الأقنعة وتتلاشى الابتسامات المزيفة .

مع كل درسٍ، كان الانعكاسُ الملوث يتغير؛ لم يعد وحشاً يطاردها، بل صار مرآةً تعلمها كيف تُعيد بناء نفسها من تحت الأنقاض. الابتسامة المطموسة اختفت للأبد، وحلّ مكانها وعيٌ ثقيل وصمتٌ مرهف.

أدركت نِفرا أن "انعكاسها الملوث" ليس عدواً خارجياً، بل هو "المعلم القاسي" الذي يخبرها بأنها جزءٌ من هذا التلوث البشري، وأنها لكي تنجو، عليها أولاً أن تعترف بدمارها .

نظرت نِفرا إلى المرآة للمرة الأخيرة قبل أن تبتعد، ورأت ظلها يتحدُ مع جسدها. لم يعد هناك انفصال، بل "اتساقٌ مؤلم". تنفست بعمقٍ

لأول مرة، لكنه لم يكن نفساً مريحاً، كان "نفس الغريق" الذي وصل إلى اليابسة ليكتشف أن اليابسة تحترق .

همست لنفسها: "أنا مستعدة.. أو ربما لا يوجد شيءٌ اسمه الاستعداد، لكن الطريق أمامي، والانكسارُ الكبير هو الذي سيكشفُ كل ما تبقى ".

انغلق الباب الثاني على وقع نبضات قلبها المترنح، وانفتح أمامها الباب الثالث: الانهيار الكامل.. حيث لا تعود المواجهة مع الصور، بل مع "العظم" مباشرة .

الباب الثالث: قلب مضطرب

"ليس كل اضطرابٍ ضعفاً، فأحياناً يكون هذا الضجيجُ الداخلي هو آخر ما تبقّى من الصدق في روحٍ أطبقَ عليها زيفُ العالم، هو الصرخةُ الأخيرة للغريق قبل أن يستسلم لسكينة القاع".

نبضُ قلبها يشتعلُ الآن بلا سببٍ ظاهر، كل شهيقٍ تجذبه رئتاها يشبه انفجاراً داخلياً مكتوماً، وكل زفيرٍ يخرج منها يترك خلفه فراغاً رصاصياً يضغطُ على أضلاعها. نِفرا، التي باتت بلا وجهٍ يحميها، ولا مرجعٍ تستندُ إليه، تشعرُ بأن ذرات جسدها قد بدأت تعلن العصيان. صرخةٌ صامتة تمزق أحشاءها :

"-أين أنا؟ ومن هذه التي تسكنني؟"

همسٌ داخلي، لزجٌ كالكوابيس، بدأ يزحف في وعيها: "كلُ شعورٍ قمعتِه، كلُ خوفٍ نكرتِه، وكلُ كذبةٍ بيضاء جمّلتِ بها قبح الواقع.. كلهم عادوا الآن بوجوهٍ شاحبة ليطالبوا بحقهم في الظهور." يداها ترتجفان كغصنٍ في مهب ريحٍ عاتية، وقلبها يطرقُ قفصها الصدري بجنون، كعصفورٍ سجينٍ أدرك أخيراً أن السجان قد غفل عن الباب. ولا شيء، مطلقاً لا شيء، يهدئ هذا الصخب. كل فكرةٍ تصطدمُ بنقيضها، وكل إحساسٍ مضطرب يخلق دوامةً من الانقسام النفسي الذي يكاد يشقّ روحها إلى نصفين .

"أقسى أنواع العذاب ليس في ما يراه الآخرون فينا من انكسار، بل في تلك "المعرفة السامة" التي نحملها نحن عن أنفسنا في غرفنا المغلقة."

أغمضت نِفرا عينيها، حاولت التشبث بحبال الصمت، لكن الصمت نفسه انقلب عليها؛ صار صوتاً، صار صدىً لنفسها الممزقة، يصرخُ فيها بمرارة :

"-أنتِ مختلفة.. أنتِ وحيدة.. وكلُ ما فيكِ يشتعلُ بنيرانِ الحقيقة التي لا تُطاق".

كل كابوسٍ قديم، كل إحباطٍ دفنتهُ تحت رمال التجاهل، كل ألمٍ مكبوتٍ منذ الطفولة بدأ يبرزُ مخالبه. لم تعد مجرد ذكرياتٍ باهتة، بل تجسدت في نبضها المضطرب، وفي عقلها المشوش، وفي روحها التي فقدت ملامحها. سألت نفسها وهي تترنح:

"-هل يمكن لروحي أن تحتمل كل هذا الثقل؟ أم أنني سأتفتت قبل أن ألمس جوهري؟"

ألمٌ حقيقي، ثقيلٌ ومادي، اختلط بوعيها الجديد. الانعكاساتُ الملوثة التي رأتها في المرآة لم تذهب لحال سبيلها، بل تحولت إلى "قضاةٍ صامتين" في محكمةٍ سرية تُعقد داخل دمها. كل درسٍ تعلمته صار سيفاً مزدوجاً: يجرحُ كبريائها، لكنه يمهدُ الطريق لمواجهة "نِفرا الحقيقية".. تلك التي لا ترتدي أي قناع. همسٌ داخلي مكثف يتردد كترتيلةٍ جنائزية:

"-الانكسارُ ليس هروباً من المعركة، بل هو اللحظة الوحيدة التي تبدأين فيها برؤية الحقيقة بوضوحٍ تام".

القلوبُ المضطربة ليست مكسورةً بالكامل؛ إنها قلوبٌ تحاولُ العثور على تردد "الحقيقة" وسط ضجيجِ الزيف، إنها تبحث عن وجهها الضائع بين غابةِ الظلال.

رفعت نِفرا رأسها ببطء، تحدت الضعف القاتل، وتحدت الكوابيس التي تتراقص أمام عينيها. ابتسامةٌ صغيرة، دقيقة، وغير مطموسة هذه المرة، نبتت في أعماقها. كانت ابتسامة "المحارب" الذي أدرك أن الهزيمة هي بداية الفهم. كان قلبها يغلي، لكنه استيقظ لأول مرة. على الأرض، بين يديها ورأسها، كانت كل نبضة قلبٍ بمثابة إشارة تحذير :

"-لن تستطيعي الفرار.. ستواجهين كل جرحٍ لم يندمل، وكل كذبةٍ أخفيتِها خلف الحياء المصطنع ".

تذكرت فجأة طفلةً وحيدة، تبحث عن وجهٍ يحميها في مدينةٍ من المرايا، ولم تجد سوى الفراغ. هذا الألم القديم لم يأتِ ليدمرها هذه المرة، بل ليعلمها :

"-القلبُ المضطرب هو الدليل القاطع على أن الروح لا تزالُ حية، وأنها لا تزال تملك القدرة على الصراخ".

دموعها انهمرت، ليس لأنها ضعيفة، بل لأنها أخيراً "أبصرت". كانت دموع المواجهة، دموع التحرر من عبء الادعاء .

إن مَن لم يعرف قلبهُ مضطرباً، لم يعرف نفسه أبداً. ومَن لم يواجه الجحيمَ في داخله، لن يذوق طعم الحرية الحقيقية التي تبدأ بعد الانهيار.

نِفرا الآن مستعدة. القلبُ لم يهدأ، لكن الارتجاف صار قوة، والاضطراب صار بصيرة. أدركت أن المدينة لم تكسرها، بل هي التي كسرت أصنام نفسها لتعرف الحقيقة. كلُ ظلٍ داخلها صار عيناً ترى بها، وكلُ كسرٍ صار بوصلةً ترشدها. وقفت، وشعرت بنواة صمتها تتصلب. كانت تعرف أن الطريق القادم مظلم، لكنها لم تعد تخشاه. لقد تحول الاضطراب إلى يقين، والضعف إلى سلاح. همست نِفرا لنفسها وهي تفتح الباب الرابع :

"-أنا هنا.. بلا وجه، بلا مرجع، لكنني لأول مرة.. أرى نفسي ".

جون جاك روسو:

"يوجد نوعان من العبيد : عبدٌ مصفد بالأغلال ، وعبدٌ يعتقد أنه حر لأنه يحب أغلاله".

- Comfrot + Ingnorance = False Freedom

الجزء الرابع الحرية المسمومة
- عبودية وهمية-

"إن أشد أنواع الغربة فتكا، ليست تلك التي تشعر بها بعيدا عن وطنك، بل هي مرآتك ولا تتعرف على الشخص الواقف هناك".

لطالما تساءلتُ: هل يمكن للزنزانة أن تكون شاسعة لدرجة أن السجين يظنها أفقاً؟

في إيليترا، اكتشفتُ أن أقسى أنواع العبودية ليست تلك التي تُفرض بالسلاسل والجلد، بل هي تلك التي نختارها بملء إرادتنا، ونحن نبتسم للكاميرات. لقد تحولنا إلى مسوخٍ جميلة، نبيع جوهرنا مقابل حفنة من 'الاستحسان' العابر، ونقايض سكينة الروح بضجيج الشهرة الزائف. إنها 'الحرية المسمومة'، تلك الخديعة الكبرى التي منحتنا الحق في أن نفعل كل شيء، إلا أن نكون أنفسنا. أرى وجوههم في الشوارع مشدودة بابتسامات بلاستيكية، وعيونهم تلمع ببريق 'النيون' لا ببريق الحياة. إنهم يركضون خلف 'الموضة' كمن يركض خلف سراب في صحراء قاحلة، لا ليرووا عطشهم، بل ليثبتوا للسراب أنهم موجودون. يا له من بؤسٍ مقدس! أن يستهلك الإنسان عمره في تلميع قشره بينما لُبّه يتعفن في الظلام. لقد استبدلنا الإله بـ 'الصورة'، والفضيلة بـ 'الترند'، وأصبحنا نخشى أن تنطفئ الأنوار أكثر مما نخشى أن تنطفئ ضمائرنا. نحن عبيدٌ نلهث في 'معبد الضوء'، نقدّم قرابين من خصوصيتنا

وصدقنا لآلهة الورق والزجاج، ثم نتساءل في آخر الليل، ونحن نحدق في سقف غرفنا الباردة :

-لماذا نشعر بكل هذا الخواء؟

هذا الجزء ليس حكاية عن مدينة، بل هو 'اعترافات روح' تمزقت بين رغبتها في التحرر وبين واقعٍ يخنقها بكل ما هو 'برّاق'. هنا، سأريكم كيف تصبح الحرية سجناً، وكيف يصير الضوء كفناً، وكيف نغرق في النشوة بينما تصرخ أرواحنا من الجوع ".

الباب الأول: أصفاد غير مرئية

"لا يوجد سجين اكثر بؤسا من ذلك الذي يظن انه حر بينما هو يرسف اغلال صنعت من رغباته الخاصة فالقيود التي تلبس برضا النفس لا تكسر بدا ".

كانت "إيليترا" في ذلك المساء تتأنق كأرملةٍ لعوب، تضعُ مساحيق الضوء فوق تجاعيد الخراب، وتخفي تحت ثيابها الحريرية رائحة تعفن الأرواح التي سئمت من التظاهر. مشيتُ في "رواق التنميط"، وكان الهواء ثقيلاً، ليس بسبب الرطوبة، بل بكثرة الأقنعة التي كانت تتصادم فوق الأكتاف. هنا، لا يُقاس نبضك بعدد دقات قلبك، بل بمدى لمعان حذائك، وتُوزن قيمتك بما تملكه من "خيوط المدح" المنسوجة في ثوبك. توقفتُ أمام واجهة محلٍ يبيع "الوجوه الجاهزة"؛ وجوهٌ مصنوعة من مادة السيليكون الروحي، مشدودة بابتسامات أبدية لا تذبل حتى في الجنازات. رأيتُ رجلاً في منتصف العمر يبكي بصمت وهو يرتدي قناع "الغبطة الدائمة". كانت الدموع تنزلق من خلف القناع البلاستيكي لتموت على ياقته المذهبة، دون أن تجرؤ عضلة واحدة في وجهه على التعبير عن فجيعته. سألتُ نفسي :

-أي جحيمٍ هذا الذي نعيشه؟ وحضرني حينها خاطرٌ مرّ بذهني كصاعقة:

"إن أقسى عقوبة يمكن أن تنالها ليس أن تُسجن خلف القضبان، بل أن تُسحب من أعماقك لتصبح مجرد واجهة لمجتمعٍ لا يراك إلا من خلال زيفك المتقن".

كان الجميع يرتدي تلك الأساور الكريستالية التي تُصدر رنيناً موسيقياً كلما وافقتَ على رأيٍ عام أو صفقتَ لـ "ترند" جديد، وتصمتُ كالقبر إذا فكرتَ في معارضة "القطيع". نظرتُ إلى معصمي العاري، شعرتُ ببردِ الحرية القارس، تلك الحرية التي تجعلك غريباً ومكشوفاً وسط حشود الأجساد المغطاة بالدروع. تذكرتُ قول ذلك العجوز في الجزء الغابر :

الحريةُ صليبٌ ثقيل، يا نِفرا، لا يقوى على حمله إلا أولئك الذين استغنوا عن دفء القطيع مقابل برد الحقيقة.. إن العبيد يكرهون من يحررهم، لكنهم يقدسون من يجمّل لهم قيودهم.

في وسط الساحة، رأيتُ امرأةً تنهار جسدياً تحت ثقل تاجها المرصع بـ "ياقوت الشهرة". كان التاج ثقيلاً لدرجة أنه بدأ يغرس أنيابه في جمجمتها، ومع ذلك كانت تتشبث به بكلتا يديها، تصرخ من الألم وتتمسك بـ "البريق" في آنٍ واحد. كانت تخشى أن يسقط التاج فتسقط معه هويتها، وتتحول في لحظة إلى لا شيء. اقتربتُ منها، أردتُ أن أخبرها أن رأسها أجمل بكثير دون هذا الحمل الجبري، لكن صوتي ضاع في ضجيج الهتافات المتصاعدة من حولها. هززتُ رأسي بأسى وهمستُ لنفسي:

"-نحن لا نعبد أصفادنا لأنها جميلة، بل لأننا نسينا كيف نستخدم أيدينا وهي حرة. لقد علمتنا إيليترا أن اليد التي لا تحمل قيداً هي يدٌ مشلولة".

تقدمتُ أكثر نحو "مكائن التهذيب"، وهي آلات عملاقة تقف على جنبات الطريق، تنفث رذاذاً من مسحوق الذهب الذي يتغلغل في مسام الجلد ليخفي الندوب. رأيتُ الشباب يتزاحمون عليها، يشطبون تاريخ معاناتهم من فوق وجوههم ليصبحوا نسخاً متطابقة من الجمال البارد. فما هي الندبة إلا تاريخ الروح؟ وبدونها، نحن مجرد ورقٍ أبيض لم يُكتب عليه شيء. تذكرتُ كلاماً هزّ كياني :

"-في مدينةٍ تمنحك كل شيء لكي تنسى مَن أنت، يصبح البقاء صادقاً مع ألمك هو أعظم فعلٍ ثوري يمكن أن ترتكبه. إن الصدق في عالم الزيف هو الانتحار الأنيق".

مشيتُ مبتعدةً، ورأيتُ "الأصفاد غير المرئية" تربط الأعناق ببعضها البعض في سلسلةٍ لا متناهية من التبعية. الكل ينظر إلى قفا الذي أمامه ليتأكد أنه يسير على الخط الصحيح. أدركتُ حينها أن الخوف من "النبذ" هو القيد الأمتن. إننا نخاف العزلة أكثر مما نخاف العبودية، لأن العبودية تمنحنا رفاقاً في الزنزانة، أما الحرية.. فلا تمنحك إلا نفسك ومواجهة النفس هي أصعب حروب الوجود. توقفتُ في نهاية الرواق وأسندتُ ظهري إلى جدارٍ بارد بعيد عن الأضواء. نظرتُ إلى الحشود اللاهثة خلف "الموضة" و"القبول الاجتماعي"، وشعرتُ برغبة في التقيؤ

الفلسفي. هؤلاء البشر ليسوا أشراراً، إنهم فقط خائفون من "الفراغ". لقد بنوا سجناً بلا أبواب، لأنهم أقنعوا أنفسهم بأن ما وراء الجدران هو العدم. وقبل أن أغادر، كتبتُ بظفري على الجدار المظلم كلمة واحدة، لتكون رسالة لمن سيأتي بعدي ويشعر بنفس هذا الاختناق:

"-مأساة إيليترا ليست في أننا سجناء، بل في أننا نتنافس على من تكون زنزانته أكثر بريقاً، ومن يكون كفنه أغلى ثمناً".

غادرتُ الرواق بخطوات ثقيلة، وأنا أعرف أنني لن أعود كما كنت. لقد رأيتُ الأصفاد، ومن يرى القيد، لا يمكنه أبداً أن يقتنع بأن الرقص فيه هو حرية. بينما كنتُ أحاول الهروب من زحام "رواق التنميط"، استوقفني صوتُ انكسارٍ لم يشبه صوت الزجاج، بل كان أشبه بصوت تهشم عظمٍ رقيق. التفتُّ لأرى شاباً قد سقط في وسط الساحة؛ كان يرتدي حذاءً من "البلور الطائر"، وهو حذاء يرفع صاحبه عن الأرض بضعة سنتمترات ليمنحه مظهر المترف الذي لا يمس التراب. لكن الوقود السحري في حذائه قد نفد، أو ربما لم يعد جسده الهزيل قادراً على موازنة الوهم، فهوى على وجهه أمام الجميع. لم يهرع أحدٌ لنجدته. بل على العكس، تراجع الناس عنه وكأنه مصابٌ بمرام "الحقيقة المعدية". كانت الدماء تسيل من جبهته، فتمتزج بمسحوق الذهب على وجهه لتصنع طيناً بشعاً. نظرتُ في عيون المارّة، فرأيتُ الرعب؛ ليس خوفاً عليه، بل خوفاً من أن يذكّرهم سقوطُه بأنهم هم أيضاً معلقون بخيوطٍ واهنة. في تلك اللحظة، ارتفع صوتُ بوقٍ نحاسيّ

عملاق من بعيد، وبدأت الأضواء في الشوارع تخبو ليحلّ محلها شعاعٌ واحد، ضخم وفضي، ينبعث من قمة "معبد الضوء" القابع في قلب المدينة. إنه المكان الذي لا يدخله إلا "المصطفون"، أولئك الذين استبدلوا أرواحهم بكاميرات خفية، وحياتهم بعروضٍ مستمرة. مسح الشاب الدماء عن وجهه بحركة يائسة، ونظر نحو المعبد بعينين يملؤهما الهوس، لا الألم. همس بصوتٍ محشرج :

"-لو أنني كنتُ هناك.. لو أنهم رأوني تحت ذلك الشعاع، لما شعرتُ بهذا السقوط. "

هنا أدركتُ الحقيقة المرة؛ أن هؤلاء العبيد لا يبحثون عن الحرية، بل يبحثون عن "الاعتراف". إنهم مستعدون للموت في أصفادهم شريطة أن تُسلط عليهم الأضواء وهم يفعلون ذلك .

"إن الإنسان الذي يفقد بوصلته الداخلية، يتحول إلى عباد شمسٍ بائس؛ يدور حيثما دار الضوء، حتى لو كان ذلك الضوء هو النار التي ستحرقه".

تركتُ الشاب ملقىً في عاره، ومشيتُ نحو ذلك الشعاع الفضي الذي يلتهم سماء إيليترا. لم يعد يكفيني أن أرى الأصفاد، كان عليّ أن أدخل إلى "المذبح" نفسه، إلى المكان الذي يُصنع فيه الوهم ويُقدس فيه البريق. كان عليّ أن أفهم لماذا يركض الجميع نحو الضوء، بينما هو في الحقيقة ليس إلا كفناً أبيض مشعاً. وضعتُ كفي على قلبي، الذي كان ينبض بعنفٍ وسط هذا الصمت المريب، وقلتُ في نفسي: -

" استعدي يا نِفرا، فالدخول إلى معبد الضوء لا يحتاج إلى ثيابٍ فاخرة، بل يحتاج إلى روحٍ مستعدة للعمى ."

الباب الثاني: معبد الضوء

"لقد تعلمنا كيف نلمع في عيون الغرباء، لكننا نسينا كيف نضئ في عتمتنا. نحن نبيع الصدق لنشتري التصفيق، وفي النهاية العرض، نكتشف ان المسرح كان قبرا والجمهور كان وهما ".

كان المعبد يرتفع في قلب "إيليترا" كنجرٍ من البلور يطعن صدر السماء. لم يكن مكاناً للعبادة بالمعنى القديم، بل كان "محراباً للصورة". هنا، يتجمع أولئك الذين نبذوا واقعهم ليعيشوا في انعكاساتهم. وعند مدخله، كانت الأضواء قوية لدرجة أنها تمسح الظلال؛ ففي هذا المكان، "الظل هو الخطيئة الوحيدة"، لأن الظل يعني أنك لا تزال تمتلك جسداً مادياً، وهم يريدونك "فكرةً مشعة" فقط. دخلتُ خلف حشدٍ من "المريدين"، وكان الصمتُ هناك مقدساً، لا يقطعه إلا أزيز العدسات ووميض "البلورات الكاشفة". رأيتُ في الزوايا بشراً يجلسون على منصاتٍ مرتفعة، لا يتحركون، كأنهم تماثيل من شمع. أخبرني أحدهم بهمسٍ يملؤه الحسد :

"هؤلاء هم 'الخالدون'.. لقد نجحوا في تحويل كل لحظة من حياتهم إلى مشهدٍ عام، فلم يعد لديهم ما يخفونه، ولذلك لم يعد لديهم ما يؤلمهم."

تأملتُ وجوههم، فلم أجد فيها أثراً للحياة. كانت أعينهم جاحظة، تبحث دائماً عن "الضوء" الذي يمنحهم الشرعية. تذكرتُ حينها تلك الحقيقة البشعة :

"- اللعنة الكبرى ليست في أن تكون مجهولاً، بل في أن تصبح معروفاً لدرجة أنك لا تعود تعرف نفسك إلا من خلال عيون الغرباء ".

في وسط المعبد، كان هناك "مذبح الخصوصية". رأيتُ امرأةً جميلة تتقدم بخطواتٍ مهتزة، وهي تحمل في يدها قارورة زجاجية تحتوي على "دموعٍ حقيقية". سكبتها فوق المذبح ليشاهدها الجميع في بثٍ حي عبر جدران المعبد. صفق لها الحضور، ليس تعاطفاً مع حزنها، بل إعجاباً بـ "جمالية" الانكسار. لقد صار الألم سلعة، وصارت العاطفة "عرضاً مسرحياً". شعرتُ بغثيانٍ الروح يكتسحني. كيف وصلنا إلى مرحلةٍ نبيع فيها أوجاعنا لنشتري بها "تصفيقاً" من أناسٍ لا يهمهم إن متنا غداً؟ وحضرني اقتباسٌ يصف هذا الهوان: "نحن نعيش في عصر 'المعرض البشري'، حيث يُذبح الصدق على عتبة الإبهار، وحيث يُعتبر الكتمان جريمةً في حق الضوء. إننا نعرّي أرواحنا أمام الجميع، ثم نتساءل بلؤم :

" -لماذا نشعر بالبرد؟ "

تقدمتُ نحو "كاهن الضوء"، وهو رجلٌ يرتدي ثوباً من المرايا، بحيث لا يمكنك رؤيته أبداً، بل ترى نفسك فقط وأنت تنظر إليه. سألني بصوتٍ يخلو من النبرة البشرية :

"-لماذا جئتِ لتقدمي يا نِفرا؟ هل تملكين فضيحةً جميلة؟ أم وجعاً أنيقاً؟ أم هماً يمكننا تحويله إلى ضياء؟ ."

نظرتُ في انعكاسي المشوه فوق ثوبه، وقلتُ له بمرارة :

"-جئتُ أحملُ سراً لا يمكنكم رؤيته، جئتُ أحمل 'صمتي.'!'

ضحك الكاهن ضحكةً جافة كصوت تكسر الخشب، وقال: "الصمتُ في معبد الضوء هو 'العدم'. ومن لا يصرخ لكي يُرى، فهو غير موجود ."

في تلك اللحظة، أدركتُ أن هذا المعبد هو أكبر "مقبرة" في إيليترا. إنها مقبرةُ الهويات. نحن نركض خلف الأضواء لكي نثبت وجودنا، وفي الطريق، نضحي بكل ما يجعلنا "نحن". نبيع الغرفة المظلمة في قلوبنا، تلك الغرفة التي كانت تؤوي أحلامنا الحقيقية، لكي نجعل العالم كله يشاهدنا ونحن "نفرغ" من الداخل .

"إن الضوء الذي نحصل عليه من الخارج هو ضوءٌ يغشي الأبصار، أما النور الحقيقي فهو ذلك الذي ينبع من عتمتنا التي نجرؤ على حمايتها من المتطفلين".

خرجتُ من المعبد وأنا أشعر أن الضوء قد نهش جزءاً من جلدي. نظرتُ إلى السماء الحقيقية، بعيداً عن أضواء النيون، ورأيتُ نجمةً وحيدة تكافح لكي تظهر. همستُ لها :

"-أنتِ حرة لأنكِ بعيدة، ولأنكِ لا تطلبين من أحدٍ أن يصفق لبريئك."

تجاوزتُ بهو المعبد الرئيسي لأجد نفسي أمام مدخل "قاعات الانعكاس". هنا، لا توجد جدران من حجر، بل كل شيء مصنوع من "الزجاج الواعي"، وهو زجاجٌ لا يعكس صورتك كما هي، بل يعكس "ما يتوقع الآخرون أن يروه فيك". دلفْتُ إلى القاعة الأولى، وفجأةً تضاعفتُ. لم أكن نِفرا واحدة، بل كنتُ مئات النسخ. في مرآةٍ جهة اليمين، رأيتُ نفسي بملامحٍ قاسية كأنني محاربة، وفي أخرى كنتُ أبدو هشةً كعصفورٍ مبلل، وفي ثالثة كنتُ مجرد طيفٍ باهت لا يكاد يُرى. شعرتُ بالدوار، فأيٌّ واحدةٍ منهن هي أنا؟ وأيٌّ نسخةٍ عليّ أن أصدق؟ تذكرتُ حينها ما قاله أحد الفلاسفة الذين فقدوا عقولهم في هذا المعبد :

"-المرآة ليست أداة لرؤية النفس، بل هي فخٌّ نُصِبَ لاصطياد الروح؛ فكلما نظرتَ إلى انعكاسك، منحتَ الصورةَ جزءاً من حياتك، حتى لا يتبقى منك في النهاية سوى جسدٍ فارغ، بينما تعيش روحك مسجونةً خلف الزجاج".

رأيتُ رجلاً في القاعة المجاورة يقف أمام مرآةٍ عملاقة تُسمى "مرآة الاستحقاق". كان يصرخ في وجه انعكاسه، ويعدل ياقة قميصه، ويحاول رسم ابتسامةٍ مثالية، لكن المرآة كانت تظهره دائماً "ناقصاً". كان الزجاج يهمس له بصوتٍ معدني :

"-لستَ كافياً بعد.. ينقصك القليل من البريق في عينيك.. القليل من الزيف في صوتك ."

استمر الرجل في تعديل نفسه حتى تمزقت ملامحه، وسقط مغشياً عليه من فرط الإرهاق النفسي. هززتُ رأسي بأسى، وأدركتُ عمق المأساة :

"-إننا لا نهلك بسبب عيوبنا، بل نهلك بسبب محاولتنا المستمرة لإرضاء مرايا لا تشبع. نحن عبيدٌ لنسخةٍ منا لا توجد إلا في خيال الغرباء ".

مشيتُ في الممرات التي لا تنتهي، حيث كانت المرايا تتآمر على حواسي. في "قاعة التكرار"، رأيتُ بشراً حبسوا أنفسهم طواعيةً، كانوا يراقبون انعكاساتهم وهي تؤدي حركاتٍ بارعة، ثم يحاولون تقليدها. لقد صار الأصلُ يقلد الصورة! يا له من انقلابٍ كوني بشع! أن يصبح الإنسان هو الظل، وتصبح الصورة هي الحقيقة. توقفتُ أمام مرآةٍ مظلمة في زاويةٍ مهجورة، لم تكن تعكس شيئاً. وضعتُ يدي عليها، فشعرتُ ببرودةٍ لمست شغاف قلبي. كانت هذه "مرآة الحقيقة المنسية". للحظةٍ قصيرة، رأيتُ فيها وجهي القديم، وجه نِفرا قبل أن تلوثها أضواء إيليترا؛ رأيتُ عيناً تلمع بالحزن الصادق، لا بالبريق المصطنع. بكيتُ ولأول مرة منذ زمن، لم تكن دموعي "للعرض"، بل كانت لي وحدي. خطرت لي فكرةٌ أرعبتني :

"-في عالمٍ يعبدُ الانعكاس، يصبح الوجه الحقيقي عورةً يجب سترها، وتصبح العتمة هي الملاذ الوحيد لمن لا يزال يمتلك قلباً ينبض".

بينما كنتُ أغادر القاعات، كان صوتُ اصطدامِ الزجاج ببعضه البعض يشبه صرخات أرواحٍ محبوسة. أدركتُ أن "معبد الضوء" ليس مكاناً للاحتفاء بالإنسان، بل هو "معملٌ" لتفكيكه. إنهم يأخذون كينونتك الواحدة، ويحولونها إلى شظايا مشتتة في آلاف المرايا، لكي لا تجد نفسك أبداً، ولكي تظل دائماً في حاجةٍ إلى "الضوء الخارجي" لكي تلملم شتاتك. خرجتُ إلى ساحة المعبد الكبرى، والشمسُ توشك على المغيب، لكن أضواء المدينة كانت تتأهب للاشتعال بقوةٍ أكبر. نظرتُ إلى المعبد للمرة الأخيرة وقلتُ في سري :

"-سحقاً لأضواءٍ تسرق مني ظلي، وسحقاً لمرايا لا تريني إلا ما يرضي الجلاد".

لقد فهمتُ الآن لماذا يهرب الناس من هذه القاعات إلى الحانات المظلمة في زوايا المدينة؛ إنهم يهربون من "رؤية أنفسهم" الممزقة، ليبحثوا عن غيبوبةٍ تُنسيهم مرارة الحقيقة.. وهذا ما سأجده في الباب القادم: "نشوة بلا خلاص ."

الباب الثالث: نشوة بلا خلاص

" حينما يفرغ الداخل من المعنى ، يصبح الهروب الى الغيبوبة هو الملاذ الاخير. ان البحث عن النشوة في زمن الخواء ليس الا رقصا انتحاريا فوق حافة العدم".

عندما تنطفئ أنوار "معبد الضوء" في عيون المتعبين، لا يعودون إلى بيوتهم، بل يزحفون نحو "أقبية النسيان"؛ تلك الحانات المظلمة التي تفوح منها رائحة الأرواح المحترقة. في "إيليترا"، إذا لم يستطع الضوء أن يسعدك، فإن العتمة ستتكفل بتخديرك. دخلتُ إلى المكان، وكان الضجيجُ يمزقُ الصمتَ كأنه صرخةٌ جماعية مخنوقة. رأيتُ شباباً وشيباً يجلسون أمام طاولاتٍ مرصوفة بـ "قوارير السراب"؛ وهي سوائل ملونة تجعلك ترى العالم جميلاً لمدة ساعة، مقابل أن تسلبك ذاكرتك لدهر. كان الجميع يضحك، لكنها لم تكن ضحكات فرح، بل كانت تشنجاتٍ عصبية لأجسادٍ تحاول إقناع نفسها بأنها لا تزال حية. تذكرتُ حينها ما كتبه أحد المعذبين فوق جدار القبو :

"-النشوةُ في زمن الخواء ليست بحثاً عن اللذة، بل هي محاولةٌ يائسة للانتحار دون التوقف عن التنفس. نحن نشرب لكي لا نرى المسوخ التي صرناها تحت أضواء النهار".

رأيتُ في الزاوية رجلاً يغرس إبرةً في وريده، لم تكن تحوي مخدراً كلاسيكياً، بل كانت تحوي "رحيق الزهو"، مادة خيالية تمنحك شعوراً وهمياً بالعظمة والقوة، فتظن أنك ملكٌ يسيطر على "إيليترا"، بينما أنت في الواقع حشرةٌ ملقاة على أرضيةٍ قذرة. نظرتُ إلى عينيه الغائبتين وقلت في نفسي :

"-يا لبؤس الإنسان! يهرب من عبودية 'الآخرين' ليسقط في عبودية 'حواسه'. إنه يستبدل القيد الذي يراه الناس بقيدٍ ينهش أحشاءه من الداخل، ويسمي ذلك خلاصاً".

في وسط الصالة، كانت الموسيقى تصدح بإيقاعات "ميكانيكية" لا روح فيها، وكأنها مصممة لتمنعك من التفكير. رأيتُ فتياتٍ يرقصن بآليةٍ مرعبة، عيونهن خاوية تماماً، كأنهن دُمى تم تحريكها بواسطة "خيوط النشوة". كنّ يهربن من "عبودية الموضة" التي وصفناها في الباب الأول، ليرتمين في أحضان "عبودية الغياب". وحضرني اقتباسٌ يصف حال مجتمعنا هذا :

"-المجتمع الذي لا يمنح أبناءه معنىً للحياة، يبيعهم المخدرات لكي ينسوا مأساتهم. نحن أمةٌ تستبدل الوعيَ بالغيبوبة، لأن الوعيَ في بلاد الزيف هو المصدر الأول للألم".

اقترب مني بائعُ "أوهام"، رجلٌ بعينين كالجمر، وعرض عليّ "لفافة السكينة الزرقاء". قال لي بصوتٍ مغرٍ :

"-خذي هذه يا نِفرا، وستنسين وجهكِ الذي رأيتِه في المرايا، ستنسين ثقل الأصفاد، وستصبحين خفيفةً كالدخان."

نظرتُ إليه بقدْرٍ من الاحتقار الممزوج بالشفقة، وقلتُ له :

"-أنا أفضلُ أن أحترقَ بنار الحقيقة على أن أعيشَ في جنةٍ بناها لك الوهم. إن جحيمي الواعي أشرفُ لي من فردوسك المخدر."

رد عليّ ببرودٍ أرعبني:

"- كلهم قالوا ذلك في البداية.. لكنهم عادوا ليقبلوا قدمي حين اكتشفوا أن 'الواقع' في إيليترا هو وحشٌ لا يمكن مواجهته بصدورٍ عارية ."

خرجتُ من القبو أترنح، ليس من السُّكر، بل من هول ما رأيت. أدركتُ أن الباب الثالث هو "المقبرة الحقيقية". في الباب الأول كنا عبيداً للمظهر، وفي الثاني كنا عبيداً للشهرة، أما هنا.. فنحن عبيدٌ لعدمنا الشخصي. لقد أحكمت "إيليترا" قبضتها علينا؛ سدت كل المنافذ، ولم تترك لنا إلا خيارين: إما أن نكون "دُمىً مضيئة" في شوارعها، أو "أشباحاً مخدرة" في أقبية فنائها .

"إن أعظم انتصار للشر ليس في جعلنا نرتكب الخطايا، بل في جعلنا نفقد الرغبة في النجاة، ونعتنق الخلاصَ الذي يقتلنا ببطء".

نظرتُ إلى يديّ، كانت ترتجف. لم تكن "نِفرا" قد هزمت المدينة بعد، بل كانت المدينة قد بدأت تغزو مسامات جلدها. ومع ذلك، كان هناك صوتٌ صغير في أعماقي يهمس :

"-ما زلتِ تتألمين.. وهذا يعني أنكِ لم تموتي بعد."

عدتُ إلى غرفتي الباردة، تاركةً خلفي أضواء المعبد وضجيج الأقبية. كانت يداي لا تزالان ترتجفان، لا خوفاً، بل من فرط الوعي الذي أصبح يثقل كاهلي كجبلٍ من الرصاص. نظرتُ إلى انعكاسي في نافذتي المحطمة؛ لم أعد أرى نِفرا التي بدأت هذه الرحلة، بل رأيتُ كياناً جديداً وُلد من رحم الانكسار. لقد أدركتُ اللعبة الآن: إنهم لم يسرقوا حريتنا فحسب، بل سرقوا منا القدرة على تصور حياةٍ بدون هذه القيود. نحن نعيش في 'عصر المسكنات'، حيث يُعتبر البحث عن الحقيقة خللاً عقلياً، والتمسك بالروح خيانة للتقدم. لكن، وبينما كنتُ أغلق عينيّ لأنام، سمعتُ صوتاً بعيداً يأتي من أطراف المدينة، من تلك المناطق التي لم تصلها أضواء 'إيليترا' بعد. لم يكن صوتاً موسيقياً، ولا صراخ نشوة، بل كان أشبه بـ 'هزيم الرعد' تحت الأرض. يبدو أن هناك من بدأوا يستيقظون.. ليس تحت الأضواء، بل في العتمة التي تجاهلها الجميع. هناك، حيث لا توجد مرايا ولا أصفاد حريرية، بدأتُ أشعر بنبضٍ غريب، نبضٌ لا يطلب 'الاعتراف' ولا يبحث عن 'النشوة'، بل يطلب شيئاً واحداً فقط: أن يهدم المعبد على رؤوس سجّانيه. إذا كانت 'إيليترا' قد علمتني كيف أكون عبداً أنيقاً، فإن ما هو آتٍ سيعلمني

كيف أكون 'إنساناً متوحشاً' في صدقه. لقد انتهى زمن التظاهر، وبدأ زمن المواجهة العارية ".

"لا يهم كم هو جميل القفص، ففي النهاية.. تظل الوظيفة الوحيدة للباب هي أن يُكسر".

"الحريق لا يبدأ من الخارج ، بل من ذرة أكسيجين قررت أن تتمرد على السكون".

- Silence / Pain= Revolution

الجزء الخامس: الانفجار
-الثورة الداخلية-

"إنَّ الكذبة التي يتواطأُ عليها الجميعُ تتحولُ مع الوقتِ إلى سجن، ليس لأن قضبانها قوية، بل لأنَّ السجناءَ قد نسوا ملامح وجوههم الحقيقية في العتمة. اليوم، لا أعلنُ الحربَ على المدينة، بل أعلنُ الحربَ على تلك 'النفرا' التي كانت تبتسمُ لكي لا تموتَ جوعاً للاستحسان؛ فالهدمُ هو أولُ درجاتِ الصدق".

لطالما ظننتُ أنَّ الجحيم هو الآخرون، لكنني اكتشفتُ في قاع صمتي أنَّ الجحيم الحقيقي هو تلك "الموافقة" الذليلة التي نمنحها للزيف كل صباح لكي نضمن بقاءنا في القطيع. في هذا المنعطف من رحلتي، أدركتُ أنَّ الوعي ليس هبة، بل هو لعنةٌ تجعلك ترى العفنَ تحت أثواب الحرير، وتسمعُ صريرَ العظام تحت ضحكاتِ النخبة .

إيليترا لم تكن مدينة، كانت "فكرةً خبيثة" أقنعونا فيها أنَّ العبودية الأنيقة أسمى من الحرية الموحشة. في هذا الجزء، أصلُ إلى تلك النقطة التي لا يعود فيها الخوفُ مجدياً، حيث ينضجُ الانفجارُ في صدري ليس كرغبةٍ في التدمير، بل كضرورةٍ بيولوجية للتنفس. إنني أهدمُ قناعي ليس لأكشفَ عن وجهٍ جميل، بل لأكشفَ عن "الحقيقة" مهما كانت بشاعتها؛ فالحقيقةُ البشعةُ أطهرُ من الوهمِ المقدس .

سأدخلُ إلى مخدعِ الزيف، سأجلسُ على موائدهم، وسأرى تلك الوجوه التي ظننتُها يوماً آلهةً للجمال، لأكتشف أنها "مسوخٌ" تقتاتُ على الفراغ. الثورةُ التي أقودها الآن هي "ثورةُ الداخل"؛ هي اللحظةُ التي يقررُ فيها العبدُ أنَّ كرامةَ الموتِ في العراء أفضلُ من مهانةِ الحياة في قصرٍ من زجاج. لن يكون هناك ضجيجٌ خارجي في البداية، فالانفجارات العظمى تبدأ دائماً بصدعٍ صغير في جدارِ الروح، بكلمةٍ "لا" تُقالُ في اللحظةِ التي يتوقع فيها الجميع "نعم ."

هذا الجزء هو تشريحٌ لجسدِ الزيف، ومواجهةٌ مع المرايا المظلمة التي تخبئُها إيليترا خلف أضوائها. إنني أستعدُّ الآن لسكبِ الزيتِ فوق "معبد الزجاج"، ليس حباً في النار، بل لأنَّ الضوءَ الكاذب الذي ينبعثُ منه قد أعمانا عن رؤيةِ النجوم الحقيقية. هنا، في زحامِ الخديعة، سأبحثُ عن مسمارٍ واحد أدقّه في هذا النعشِ الجماعي، لعلَّ صوتَ المطرقةِ يوقظُ أولئك الذين استعذبوا الرقاد في أيدٍ من مخمل .

الباب الأول: المسمار الأول في النعش

"إنّ أعظمَ خطيئةٍ ارتكبناها في حقِّ أنفسنا لم تكن في ارتكابِ الآثام، بل في ذلك الصمتِ المذلِّ الذي سمّيناه 'حكمة'، وفي تلك الابتسامةِ الباردة التي رسمناها فوق جروحنا لكي لا نُفسدَ على العالمِ حفلتَهُ الزائفة. لقد أقنعونا أنّ البقاءَ رهنٌ بالانحناء، فصار الانحناءُ فينا قامةً، وصار القيدُ في معاصمنا زينةً نفاخرُ بها. لكنني اليوم، أعلنُ كفري بهذا السلمِ المسموم؛ سأقول 'لا' حين ينتظرُ الجميعُ صمتي، وسأهدمُ هذا المعبدَ فوق رأسي ورؤوسكم، لأنّ الموتَ في الحقيقةِ أسمى من الخلودِ في كذبةٍ يرتديها الجميع. أفيقوا.. فالحياةُ التي لا تُزعجُ أحداً هي في الواقعِ ليست حياة، بل هي مجردُ بروفةٍ طويلةٍ للجنازة".

"الحقيقةُ كالجراحة؛ مؤلمةٌ جداً في البداية، لكنها الطريقُ الوحيد لاستئصالِ العفن. أما الكذبُ، فهو كالمخدر؛ يمنحكَ شعوراً كاذباً بالراحة بينما السمُّ ينهشُ أطرافك ."

في تلك الليلة، كانت "إيليترا" غارقةً في فائضٍ من الضوء، ضوءٌ حادّ لا يترك زاويةً واحدة للغموض، كأنه يطاردُ الخصوصيةَ في أدقِّ خلايا الجسد. كان "بهو المرايا" يعجُّ بأشباهِ البشر، يرتدون ثياباً مصنوعةً من "الوهمِ الخالص" ويتبادلون جملًا مُنمقةً حُذفت منها كل كلمة قد تثيرُ

إلى الألم أو العوز. كنتُ أقفُ هناك، وأنا أشعرُ بأنّ جلدي يرفضُ هذا الهواء، وبأنّ رئتيّ تضيقان بذرّاتِ الذهبِ العالقة في الأنفاس .

كان الحفلُ يُمثلُ "قمةَ التهذيبِ القاتل". هنا، في هذا الفضاءِ المسكونِ برنينِ الكؤوسِ الفارغة من الصدق، يُعتبرُ العبوسُ جريمةً سياسية، والشرودُ خيانةً عظمى لـ "بهجةِ القطيع". نظرتُ حولِي فرأيتُ امرأةً في الخمسين، كانت تجاعيدُ روحها تصرخُ تحت طبقاتِ السيليكون، ومع ذلك كانت تضحكُ برنينٍ معدنيّ كلما ألقى أحدهم نكتةً تافهة. رأيتُ شاباً يرتدي سواراً يراقبُ نبضاتِ قلبه، ليضمنَ أنها تتماشى مع الإيقاعِ العامِ للمكان. يا له من بؤسٍ مقدس، أن تُقايضَ نبضك الخاص بسلامةِ القطيع !

تقدمَ نحوي "سيريل"، الرجلُ الذي قضى نصفَ عمره في هندسةِ العتمةِ وتغليفها بالبريق. كان يرتدي قناعاً من اللباقةِ المرعبة، وفي عينه لمعةُ الصيادِ الذي يظنُّ أنه يملكُ الروحَ بمجردِ امتلاكهِ للصورة. وضع كفّه المبللة بالغطرسةِ على كتفي، وهمسَ بصوتٍ يشبه فحيح الأفعى في جنةٍ مغشوشة :

"-نِفرا، يا ابنةَ النور.. أنتِ اليوم أيقونتنا. لماذا تحملُ عيناكِ هذا الثقل؟ لقد صُرفَت الملايينُ لكي تبدو هذه الليلةُ مثالية، والكاميراتُ المعلقةُ في الزوايا تترقبُ منكِ إشارةَ الرضا. اضحكي، فالناسُ هنا يدفعون أعمارهم مقابلَ مشهدٍ واحدٍ يشعرون فيه بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام. لا تفسدي عليهم 'قداسةَ الزيف' بصدقكِ المزعج ".

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأنّ كلّ صرخاتِ الموتى الذين دُفنوا تحت أسوارِ هذه المدينة قد تجمعت في حنجرتي. شعرتُ بثقلِ الأقنعة التي لبستُها طوال حياتي وهي تتهاوى تحت ثقلِ اشمئزازي. نظرتُ إلى سيريل، لم أرَ جسداً، بل رأيتُ فراغاً هائلاً يرتدي حُلةً فاخرة، رأيتُ كائناً يعيشُ على امتصاصِ اعترافِ الآخرين بوجوده .

لم أبتسم، بل شعرتُ ببرودةِ الفولاذ تسكنُ نبرتي حين قلتُ له، والجميعُ يرقبُ المشهد بصمتٍ مريب :

"-سيريل، هل تعلمُ لماذا يرتعدُ كيانكَ حين تنظرُ في عينيّ؟ ليس لأنني حزينة، بل لأنني المرآةُ الوحيدة التي لم تستطعْ مكياجاتكَ أن تخدشها. أنتم لا تحبون 'قداسة الزيف'، أنتم فقط تخافون من مواجهةِ 'العدم' الذي يسكنُ خلف صدوركم المذهبة. تُطالبني بالابتسام؟ الابتسامةُ في هذا المكان هي صرخةُ غريقٍ أضاع وجهه، وهي القناعُ الأخيرُ الذي يرتديهِ المحكومُ عليهم بالفناء لكي لا يراهم أحدٌ وهم يتفتتون ".

صَمَتَّ قليلاً، ثم رفعتُ صوتي لكي يسمعه أولئك المختبئون خلف كؤوسهم :

"-إنّ مسماراً واحداً في نعشِ كذبةٍ كبيرة، أثمنُ عندي من كلّ تيجانكم المرصعةِ بياقوتِ التملق. اليوم، أنا لا أرفضُ أوامركم فقط، أنا أرفضُ وجودكم في وعيي. أنا 'المسمار' الذي سيجعلُ نعشَ هذه المدينةِ يكتمل".

ساد صمتٌ ثقيل، صمتٌ يشبه الصدى الذي يسبقُ انهيارَ الجبال. كانت هذه الكلمات هي المسمار الأول؛ ليس في نعش "سيريل" وحده، بل في نعشِ النظامِ الذي جعل من التملقِ ديناً، ومن الادعاءِ فضيلة. رأيتُ الذعرَ يزحفُ تحت مساحيقِ وجوههم، رأيتُ كيف اهتزت ثقتهم بأنفسهم حين وجدوا "صوتاً" يرفضُ الغناءَ في جوقتهم .

لقد فعلتُها. لقد خدشتُ البلورَ الذي يظنون أنه لا يُكسر. أدركتُ حينها أنّ الثورةَ لا تحتاجُ إلى جيوش، بل تحتاجُ إلى إنسانٍ واحد يمتلكُ شجاعةَ أن يكون "نفسه" وسط قطيعٍ من الانعكاسات. المسمارُ قد دُقَّ والرنينُ الذي أحدثه سيبقى يتردد في عقولهم ككابوسٍ لا ينتهي. ابتعدتُ عنهم، تاركةً خلفي رائحةَ ارتباكهم، وأنا أعرفُ أنّ الخطوةَ القادمة ستكون وسط وحوشٍ أكثرُ ضراوة، في "وليمةِ المسوخ" حيث يُفترسُ كل من يتجرأُ على امتلاكِ قلب. كانت خطواتي ثقيلة، لكنها كانت لأول مرةٍ تلامسُ الأرضَ الحقيقية، لا السجادَ الأحمرَ المفروشَ فوق الهاوية .

الباب الثاني: وليمة المسوخ

"ليس هناك أبشع من وحشٍ يرتدي ربطة عنقٍ أنيقة، ويأكلُ أحلامك بشوكةٍ وسكين، ثم يمسحُ فمه بـ 'منديلِ الفضيلة' وهو يبتسمُ للكاميرا. إنهم لا يقتلونك بضربة واحدة، بل يلتهمون كينونتك على مهل، محولين عذابك الشخصي إلى مادةٍ للترفيه فوق موائدهم المترفة".

"إنَّ الجوع الحقيقي ليس جوع البطون، بل هو سُعار الأرواح التي فقدت ماهيتها، فراحت تنهشُ ملامح الآخرين لتبني لنفسها وجهاً مستعاراً".

بعد "المسمار الأول" الذي دققتهُ في قلب الحفل، لم يطردوني. في إيليترا، هم لا يطردون المتمردين فوراً، بل يحاولون "هضمهم". دُعيتُ إلى العشاء الخاص، إلى الدائرة الضيقة حيث تُطبخُ القرارات وتُؤكلُ المصائر. كانت الغرفةُ معزولةً بجدرانٍ من المخمل الأسود، تتوسطها مائدةٌ طويلة من الأبنوس الصقيل، كأنها مذبحٌ قديم أُعد لتقديم قرابين بشرية. جلس حولها "أسيادُ الصورة"، أولئك الذين يملكون خيوط الدمى في المدينة، والذين يقررون بكلمة واحدة من هو "الجميل" غداً ومن هو "المنبوذ". رأيتهم هناك، بوجوههم الشاحبة التي لم تلمسها شمسٌ حقيقية منذ دهر، بل صُبغت تحت أضواء المختبرات. كانوا يرتشفون نبيذاً بلون الدم من كؤوس كريستالية تعكس أضواء الشموع كأنها

عيونُ شياطين تراقب الحضور. كان الصمتُ بينهم ليس وقاراً، بل كان "تربصاً"؛ فكل واحدٍ منهم يخفي خنجراً خلف ابتسامته، ينتظر سقطة الآخر ليلتهم حصته من النفوذ. كان الجوُّ مشحوناً برائحةٍ غريبة؛ مزيجٌ من البخور الغالي، والسيجار الفاخر، ورائحة تعفنٍ خفيّة لا تشمها الأنوف بل تشمها الضمائر، كأنَّ أجسادهم بدأت تتحلل تحت ثيابهم المصممة في أرقى دور الموضة، وهم لا يزالون يثرثرون عن "الأناقة الروحية."

وضعت "أرتميس"، وهي امرأةٌ يقال إنها باعت ذاكرتها وذكريات طفولتها كلها مقابل جراحة تجعل ملامحها ثابتة في سن العشرين للأبد، قطعةً من لحمٍ طائرٍ نادر في فمها. كانت تمضغ ببطءٍ آلي، ثم نظرت إليّ بعينين زجاجيتين تماماً، عينين تشبهان شاشاتٍ مطفأة، وقالت بنبرةٍ تخلو من الدفء البشري :

"-نِفرا العزيزة، كلماتكِ في البهو كانت... منعشة، كصرخة طفل في دار للأوبرا. نحن نحب القليل من 'الدراما الصادقة' بين الحين والآخر، فهي تكسر رتابة الكمال، وتزيد من قيمة العرض في أعين الجمهور. لكن، ألا تدركين أنَّ الصدق في هذا العالم هو مجرد 'بهارات' نستخدمها لتمليح موائدنا؟ لا تأخذي ثورتكِ على محمل الجد كثيراً، ففي النهاية، نحن جميعاً نلعب أدوارنا لكي لا يسقط السقف فوق رؤوسنا. انضمي إلينا، كلي من هذا اللحم، وتوقفي عن محاولة إنقاذ عالمٍ يرتلُ عبوديته بفخر."

نظرتُ إلى طبقها، ولم أرَ طعاماً. رأيتُ آلاماً معلبة. رأيتُ في تلك المائدة "لحم" كل إنسانٍ سحقته هذه المدينة ليرتفع هذا القصر. كان هؤلاء "المسوخ" لا يأكلون ليشبعوا، بل يأكلون لكي يشعروا بأنهم "أقوياء" عبر امتصاص حياة الآخرين. كان بجانبها رجلٌ يُدعى "موريس"، خبير في "تسويق المشاعر"، كان يتحدث بزهو عن كيفية تحويل مأساة عائلة فقيرة في الضواحي إلى حملة إعلانية ناجحة لبيع العطور. كانوا يضحكون بصوتٍ يشبه صرير الأسنان فوق المعدن ضحكاتٍ جافة لا تهز صدورهم، بل تهز فقط جلود وجوههم المشدودة. شعرتُ بالقيء يرتفعُ إلى حلقي، ليس من جودة الطعام، بل من بشاعة "العدم" الذي يحيط بي. قلتُ لهم، وصوتي يخرج رزيناً وقاطعاً كشفرة مقصلة :

"-أنتم لا تأكلون اللحم، أنتم تأكلون 'المعنى'. لقد فرغتم من الداخل لدرجة أنكم بحاجة لافتراس كل نبضٍ حقيقي يمرُّ أمامكم لتملأوا ثقوب أرواحكم. هذه ليست وليمة، إنها حفلة تنكرية على جثث الحقيقة. أرتميس، هل تشعرين بشيء وأنتِ تمضغين؟ أم أنَّ لسانكِ أيضاً صار جزءاً من 'العرض'؟ هل تتذكرين كيف كان ملمس الدموع الحقيقية قبل أن تستبدليها بقطرات الملح التي ترسمينها لوجهكِ أمام العدسات؟ "

ساد صمتٌ خانق، صمتٌ ثقيل لدرجة أنه كاد يحطم الكؤوس. توقفت الشوكُ في منتصف الطريق إلى الأفواه، وتجمدت الأنفاس في الصدور. رأيتُ في عيونهم لحظةً من "الرعب الوجودي"؛ تلك اللحظة

التي يدرك فيها المسخُ قبحهُ الحقيقي حين يرى نفسه في مرآة لم تُصنع في معاملهم. لقد كانت مواجهتي لهم تشبه تسليط كشافٍ قوي على صراصير ليلية اعتادت العيش في العتمة المذهبة .

أكملتُ كلامي وأنا أقفُ ببطء، دافعةً الكرسي خلفي ليرنَّ صوته في الغرفة الصامتة كصرخة استغاثة في مقبرة :

"-تسمون أنفسكم نُخبة؟ أنتم حثالةُ الضوء التي تجمعت في قاع المدينة. أنتم العبيدُ الحقيقيون، لأنكم سجناءُ الصورة التي صنعتموها ولن تجرؤوا يوماً على تحطيمها. أنا قد أكون وحيدة، وقد أكون غريبة الأطوار في نظركم، لكنني على الأقل أملكُ 'وجعاً' أصيلاً يخصني وحدي، بينما أنتم لا تملكون حتى أنينكم.. لقد صار ملكيةً عامة تبيعونها وتأكلون ثمنها ".

نظرتُ إلى "موريس" الذي كان يحاول رسم ابتسامة ساخرة، وقلتُ له :

"-أما أنت، فستظل تبيع العطور لتعطي رائحةً لوجودك الذي تفوح منه رائحة الجيف الروحية. استمروا في أكلكم، فالمائدة ستنتهي قريباً ولن تجدوا شيئاً تلتهمونه سوى أنفسكم ".

خرجتُ من الغرفة، وخطواتي تسمع صدىً قوياً في الممرات الفارغة والمظلمة. شعرتُ بغثيانٍ يمزق أحشائي، وشعرتُ برغبة في غسل روحي بماءٍ لا ينبع من آبار هذه المدينة. "وليمة المسوخ" لم تكن مجرد عشاء بل كانت "الكشف النهائي" عن طبيعة العدو. لم يعد عدوي هو "الزيف"

ككلمة مجردة، بل صار عدوي هو هؤلاء البشر الذين فقدوا بشريتهم طواعية مقابل "السيادة على الفراغ ."

كنتُ أعرف أنَّ خطوتي القادمة لن تكون حواراً، ولن تكون مجرد مسمارٍ آخر. في عالم المسوخ، لا جدوى من الكلمات مهما كانت حادة الجدوى الوحيدة هي في "الحريق" الذي يطهر الأرض من دنس الادعاء ويصهر الزجاج الذي يحبس الأرواح .

كانت السماءُ فوق إيليترا في تلك اللحظة تبدو حمراء قانية، كأنها تعكسُ الغليان الذي يسكنُ أعماقي. كنتُ أستعد للباب الثالث، حيث سيتوقف الكلام تماماً، ويبدأ "الحريق العظيم" في معبد الزجاج، حيث سأهدم المعبد لا لأبني غيره، بل لكي يرى الجميعُ الشمسَ لأول مرة دون وسيط .

الباب الثالث: حريق في معبد الزجاج

"البعض يظن أن النار تأتي لتدمير الأشياء، لكن النار الحقيقية تأتي لتطهيرها مما علق بها من زيف. في مدينة الزجاج، لا نحتاج إلى مطرقة لكسر القيود، بل نحتاج إلى حقيقةٍ مشتعلة تصهر هذا الكريستال البارد، ليرى العبيدُ أن خلف جدرانهم الشفافة لم يكن هناك أفق، بل كانت هناك زنزانة أكبر من الخيال. إنَّ كسرَ المرآة ليس فعلاً تخريبياً بل هو تحريرٌ للوجه من سجنه الأبدي".

"الحريق العظيم لا يبدأ بعود ثقاب، بل بقلبٍ لم يعد يطيق العيش في الظلال المذهبة، وبروحٍ أدركت أنَّ الرماد أطهرُ من الأقنعة."

خرجتُ من "وليمة المسوخ" وأنا أحمل في صدري غلياناً لا يطفئه نبيذهم ولا تبرده كلماتهم المسمومة. كانت خطواتي تقودني آلياً نحو قلب المدينة، نحو ذلك الصرح الذي يرتفع كنحجرٍ مسموم في خاصرة الوجود: "معبد الزجاج". هناك، حيث تُقدس الصور كآلهة، وتُحفظ الوجوه المستعارة في أوانٍ بلورية معقمة، وحيث يظن الجميع أنهم "خالدون" ما داموا يلمعون تحت الأضواء الكاشفة .

كان المعبد في تلك الساعة من الليل يتلألأ ببريقٍ هستيري، بريقٍ لا يمنح الطمأنينة بل يبعث على الدوار، كأنه يحاول التغطية على سواد الأرواح التي تسكنه وتحرسه. وقفتُ أمام بوابته العظيمة، تلك التي

صُنعت من "البلور الواعي" الذي يسجل ملامح كل من يدخل ليحولها إلى بيانات رقمية. نظرتُ إلى انعكاسي المشتت على واجهته، لم أرَ تلك الفتاة الخائفة التي دخلت إيليترا بقلبٍ مرتجف، بل رأيتُ "كائناً ناريا" قرر أن يضع حداً لهذه الملهاة الباردة. لم أكن أحمل وقوداً ولا كبريتاً في يدي، كنتُ أحملُ "نِفرا العارية"، تلك التي جردت نفسها من كل ادعاء، وهذا كان الكبريت الكافي لإشعال قارة من الزيف .

دخلتُ إلى البهو الرئيسي، حيث كانت "آلات الضوء" العملاقة تدور بأزيزٍ يشبه أنين الأرواح المعذبة، تنفث سحرها الكيميائي لتمحو مسام البشر وتبدل ملامحهم بنسخٍ من الكمال الممل الذي يقتل الروح. صرختُ بصوتٍ لم أعرف أنه يسكنني، صوتٌ جلبتهُ من أعمق آبار الوجع الإنساني، صوتٌ يحمل بحة القرون من القهر :

"-توقفوا! انظروا إلى جلودكم، إنها تتفسخ تحت هذا الضياء المصطنع! انظروا إلى عيونكم، لقد صارت شاشاتٍ باردة لا ترى إلا ما يُملى عليها! هل تظنون أنكم أحياء لأنكم تلمعون؟ الجثثُ أيضاً تلمعُ حين يغطيها الصقيع "!

ساد صمتٌ مرعب، صمتٌ يشبه الصمت الذي يسبق الانفجارات الكونية. توقفت الآلات عن الدوران ببطء كأنها أصيبت بالشلل والتفتت المئات من الوجوه الزجاجية نحوي بآلية مرعبة. في تلك اللحظة، لم أنتظر إجابة، ولم أطلب حواراً، بل بدأتُ في "الفعل التطهيري المقدس". تقدمتُ نحو "المرآة الكبرى" في قلب المعبد، تلك

التي يُقال إن مَن ينظر إليها يرى أجمل نسخة من نفسه، تلك التي يسجد أمامها الآلاف كل يوم ليرموا كبريائهم المحطم. وقفتُ أمامها، وبدلاً من أن أتأمل ملامحي، ضربتُها بكلمةٍ واحدة، كلمةٍ صادقة تماماً خرجت من أعماق كياني كأنها قذيفة :

"-أنتِ محضُ كذبة "!

في تلك اللحظة، بدأ الحريق الروحي. لم تشتعل النيران في السجاد أو الستائر الحريرية، بل اشتعلت في "الأوهام". رأيتُ الدخان يتصاعد من عقول الحاضرين، رأيتُ الأقنعة السيليكونية والوجوه المشدودة بالخيوط الخفية تبدأ في الانصهار والسيالان فوق صدورهم. كان الزجاج يطق طقاً تحت وطأة الحقيقة العارية التي كنتُ أنضحُ بها. بدأ الناس يصرخون، ليس من ألم النار الجسدية، بل من رعب "الرؤية المفاجئة"؛ فلأول مرة منذ عقود، رأوا ندوبهم، رأوا قبحهم الذي حاولوا خنقه، رأوا تجاعيد أرواحهم التي تصرخ من الإهمال تحت أطنانٍ من المساحيق الذهبية .

ركضتُ وسط الجموع المذعورة نحو منصة "البث المركزي"، حيث تُوزع الصور والتريندات على كل شاشة في المدينة. حطمتُ الأجهزة التي تُجملُ القبح وتحول المأساة إلى مشهد جمالي، وقبضتُ على الميكروفونات التي تنقل نبرات صوتي لكل بيت، لكل زقاق، لكل عقل في إيليترا :

"-يا عبيد الضوء، أفيقوا من غيبوبتكم المذهبة! هذا المعبد ليس مزاراً للجمال، إنه مشرحةٌ للأرواح! إنهم يسرقون وجوهكم ليعطوكم أرقاماً في بورصة الشهرة، ويسرقون نبض قلوبكم ليعطوكم بريقاً زائراً يتلاشى مع أول دمعة صادقة. احرقوا هذا الزجاج بدموعكم التي حبستمونها طويلاً! اهدموا هذه الجدران الشفافة التي أوهمتكم بالحرية وهي تخنق أنفاسكم وتجعلكم معروضاتٍ في واجهة كبيرة "!

انفجر المعبد من الداخل. الضغط النفسي الهائل الذي كان مكبوتاً لسنوات، ذاك الكبت الذي وُلد من محاولة البشر أن يكونوا "صوراً" لا "بشراً"، انفجر كقنبلة موقوتة. رأيتُ الزجاج يتشظى في كل مكان، والشظايا تجرح وجوه "المسوخ" الذين خرجوا من وليمتهم ليراقبوا سقوط مملكتهم. رأيتُ "أرتميس" تصرخ وهي تلمس وجهها الذي بدأ يتساقط كقطع من البلاستيك المحروق، كاشفاً عن شيخوخةٍ مرعبة كانت تخبئها خلف الزجاج. ورأيتُ "سيريل" يسقط على ركبتيه وهو يحاول عبثاً لم شتات صورته المحطمة من فوق الأرضية، غافلاً عن أن وجهه الحقيقي قد استحال إلى قطعة من العدم المتفحم .

لم يكن حريقاً عادياً؛ كان صهراً كلياً للنفوس. الزجاج الذي كان يعكس الضوء الكاذب صار الآن يعكس "الحقيقة"، والحقيقة كانت محرقة لمن لم يعتد عليها. وقفتُ في مركز هذا الإعصار من الكريستال المتطاير والأقنعة الذائبة، وشعرتُ براحةٍ غريبة تكتسح كياني. كنتُ

أعرف أن هذا الدمار ليس نهاية العالم، بل هو "نهاية الوهم"، والبداية الوحيدة الممكنة للولادة الحقيقية .

مع سقوط آخر عمود زجاجي ضخم، وانطفاء آخر مصباح ليزر، ساد ظلامٌ دامس.. ظلامٌ لم تعرفه إيليترا منذ قرون. ظلامٌ حقيقي، ثقيل، ورطب، ومنعش كحضن الأرض. لم يعد هناك نيون، ولا صور، ولا "لايكات" زائفة، ولا أقنعة مشعة. في هذا الظلام، ولأول مرة، بدأ الناس يلمسون جلودهم بأيديهم المرتجفة، يتأكدون من ملمس العظم واللحم دون حاجة لمرآة لتخبرهم أنهم موجودون. سمعتُ بكاءً حقيقياً يمزق السكون، ليس بكاء العرض المسرحي أو النحيب المستعار، بل بكاء الروح التي استيقظت فجأة لتجد نفسها عارية، محطمة، وجريحة.. لكنها، ولأول مرة، كانت حية .

همستُ لنفسي والرماد الروحي يغطي شعري وثيابي، بينما رائحة الزجاج المنصهر تزكم الأنوف :

"-لقد احترق المعبد، لكن المعركة الكبرى لم تبدأ بعد. لقد هدمتُ جدرانهم، لكنني لم أهدم السجون التي بنوها داخل صدورهم. الآن وسط هذا الحطام، سيبدأون في رؤية الظلام الحقيقي.. ذاك الذي لا يحتاج إلى كهرباء، بل يحتاج إلى شجاعة لمواجهة الأسرار التي دفنوها في قلب العتمة ".

نظرتُ بعيداً نحو الأفق المظلم، حيث لم تعد المدينة تلمع، بل بدت كجثةٍ عملاقة تنتظر الدفن. كنتُ أعرف أن الجزء الخامس قد انتهى بالانفجار، لكن الشظايا التي انطلقت ستستقر في الجزء السادس؛ هناك حيث سأكتشف أن مواجهة الأسرار المظلمة للقلوب البشرية بعد سقوط الأقنعة هي الجحيم الحقيقي الذي لم يستعد له أحد .

لقد فعلتُها. لقد حرقتُ إيليترا، والآن، وسط هذا السواد المطهر، سأبدأ رحلة البحث عن "نِفرا" التي لا تحتاج لضوء المدينة لكي تُرى .

نيتشه:

"من يصارع الوحوش عليه أن يحذر لئلا يصبح هو نفسه وحشا.. وإذا أطلت النظر في هاوية، فإن الهاوية ستنظر إليك أيضا".

الجزء السادس: الظلام الحقيقي
- قلب الأسرار-

"يخطئُ من يظنُّ أنَّ النورَ هو الذي يكشفُ الأشياء، النورُ في إيليترا كان أكبرَ ساترٍ لعوراتنا. الحقيقةُ لا تظهرُ إلا عندما تنطفئُ آخرُ شمعةٍ للادعاء. هناك في العتمةِ المطلقة، حيث لا تملكُ ملامحُنا أيَّ قيمة، تبدأُ أسرارُنا بالحديث. الظلامُ ليس غياباً للضوء، بل هو 'الحضورُ الطاغي' لكل ما حاولنا قتلهُ داخلنا لسنوات."

بعد أن همدت نيران "معبد الزجاج" وتحول صخب الاحتراق إلى رمادٍ بارد يغطي المدينة، لم يأتِ الفجر الذي وعدتُ به نفسي. بدلاً من ذلك، سقطتُ ومعي الجميع في صمتٍ لم يكن سكينةً، بل كان ذهولاً جنائزيّاً. اكتشفتُ في تلك اللحظة أنَّ إيليترا لم تكن مجرد مدينة من حجر ونيون، بل كانت "ضماداً كبيراً" وضعتهُ فوق جرحي الكونيّ المتعفن، وعندما نزعتُ الضماد بيديّ المحترقتين، واجهتُ لأول مرة الرائحة الكريهة لحقيقتي العارية .

في هذا المنعطف، قررتُ أن أهجرَ ساحات المعارك الخارجية، وأهبطَ إلى "الخنادق السفلية" للوجود. أدركتُ أنَّ تحطيمَ الأصنامِ الزجاجية في الميادين كان الجزء الأسهل من مأساتي، أما الكارثةُ الحقيقية فهي تلك "الكهوف" التي حفرها الزيفُ في صدري وفي صدور الآخرين. إيليترا لم تكن تكتفي بتغيير وجوهنا، بل كانت تعيدُ

برمجةَ نبضاتنا، وتزرعُ الصدأ في مفاصلِ أرواحنا، حتى أصبحنا "آلاتٍ حية" تتقنُ كل شيء.. إلا أن تكون بشراً .

سأهبطُ الآن لأشرحَ "القلوب الصدئة"؛ تلك التي نسيت كيف تحب دون أن تضعَ شروطاً للصورة، وكيف تبكي دون أن تفكر في زاوية الكاميرا. سأواجه الحقيقة المرّة: إنَّ الحضارة التي تفتخرُ بالضوء هي في الحقيقة حضارة "الأسرار المظلمة"؛ حيث يخبئُ كلُّ إنسانٍ وأنا أولهم خلف جدارِ صمتهِ جثةً لـ "نفسهِ القديمة"، جثةً لم تجد من يدفنها فظلت تنزفُ سماً في وعينا الحاضر .

الظلامُ الحقيقي الذي يلفني الآن، ليس هو السواد الذي يغطي الشوارع، بل هو ذلك "العُري الروحي" المرعب الذي يظهر عندما تسقط الأقنعة ولا نجد خلفها وجهاً، بل نجد "ثقباً أسود" من الرغبات المكبوتة والندم المتراكم. هنا، أصبحَ الصدقُ هو العقوبةَ القصوى لي، وصارت الذاكرةُ هي الجلادَ الذي لا يرحمني .

إنه الوقتُ الذي أواجه فيه "عدمي" الشخصي. سأرى كيف تحولت قيمي إلى "سلعٍ منتهية الصلاحية"، وكيف صار العيشُ بلا "جلدٍ اجتماعي" هو الجحيمَ الذي كنتُ أهربُ منه. إنَّ الدخولُ إلى "قلب الأسرار" يتطلبُ مني شجاعةً تفوقُ شجاعةَ إشعال الحرائق؛ إنه يتطلبُ القدرةَ على النظر في عينِ الوحش الذي يسكنني.. والاعتراف بأنه يشبهني تماماً .

الحقيقةُ في إيليترا لم تكن ضائعة، كانت فقط "مخفيةً ببراعة"، والآن، وقد رفعتُ الغطاءَ عن البئر، لن ألوم نفسي إذا وجدتُ القاعُ موحشاً لدرجةِ الانكسار

الباب الأول: سراديب الذاكرة المنسية

"الذاكرة هي تلك الزنزانة التي أحمل مفاتيحها في جيبي، لكنني كنتُ أفضل أن أدعي ضياعها لكي لا أواجه السجين الذي أودعته هناك.. أنا السابقة ."

مشيتُ وسط حطام المعبد المنطفئ، وكان البشر يتسكعون من حولي كالأشباح التي فقدت بوصلتها فجأة. في إيليترا، كان الضوء هو الذي يحدد لنا الجهات، والآن، في غياب النيون، بدت المدينة كجثة عملاقة بلا أطراف. لم نعد ننظر إلى الأعلى، لأن السماءَ لم تعد تمنحنا "الفلتر" المناسب لصورنا، بل بدأنا ننظر إلى الأرض، أو بالأحرى، إلى ما تحتها، إلى ذلك المكان الذي كنا نهرب منه طوال حياتنا. شعرتُ فجأة أنني لا أمشي فوق رمادِ الزجاج، بل أمشي فوق "قشورِ هوياتٍ تالفة" تراكمت عبر السنين. كان الهواءُ ثقيلاً، لزجاً، برائحةِ الغبار والندم الكثيف، تلك الرائحة التي تنبعث من الأشياء التي تُرِكت في الظلام طويلاً حتى نبت فيها العفن .

قادني حدسي، أو ربما لعنتي، نحو "أقبية النسيان"؛ تلك السراديب السفلية التي صممتها المدينة بعناية لتكون "مقبرة جماعية" لكل ما هو "قديم"، "قبيح"، أو "غير متوافق مع الحداثة". كانت الجدران هناك تنضحُ برطوبة غريبة، شعرتُ أنها عرق الأرواح التي سُجنت هنا. في

هذه السراديب، لا توجد شاشات لمس ولا أجهزة ذكية، بل توجد أكياسٌ من الخيش وصناديق من الخشب المهترئ تضمُّ "الفضلات الروحية" للمدينة: دمىً محطمة بوجوه غير مثالية، رسائل حبٍ مكتوبة بخط اليد تعثرت فيها الكلمات فلم تعد تصلح للنشر، وصورٌ فوتوغرافية باهتة لأناسٍ لم يعد أحدٌ يذكر أسماءهم لأنهم لم يتركوا "أثراً رقمياً" كافياً.

توغلتُ في الممر الطويل، وكان صدى خطواتي يرتد كأنه صفعات على وجه الصمت. في زاوية معتمة، رأيتُ امرأةً كانت حتى الأمس "أيقونة الجمال المطلق" في إيليترا. كانت تجلسُ على كومة من الملفات الممزقة، تحتضنُ فستاناً صغيراً مهترئاً لطفلة، واكتشفتُ بهولٍ أنها لم تكن تحتضن فستان ابنتها، بل كانت تحتضن "نفسها"؛ تلك الطفلة التي وأدتها بدم بارد لكي تشتري لنفسها مكاناً في واجهات العرض. كانت تمسح بقطعة القماش فوق وجهها المحطم بضربات هستيرية وهي تهمسُ :

"-لقد غسلوا دماغي بالأضواء حتى نسيتُ ملمس الحزن الحقيقي.. لقد جعلوني أصدق أنني مادةٌ صلبة كالألماس لا تنكسر، والآن، في هذا الظلام، أشعرُ أنني أتفتتُ كالملح تحت وطأة الذاكرة ".

كلما تعمقتُ أكثر، كانت الجدران تضيق، والصور تزداد بشاعة وصدقاً. رأيتُ صناديق تحمل لافتات مثل "الأحلام المهجورة" و"الضحكات غير المصنعة". فتحتُ أحدها، فوجدتُ فيه تسجيلاً صوتياً قديماً لرجل يبكي بمرارة على فقدان أمه، لكن في إيليترا، كان هذا البكاء يُعتبر "ضعفاً بصرياً"، فتم استبداله بصورة له وهو يبتسم بوقار في

الجنازة ليرفع من رصيد "ثباته الانفعالي". أدركتُ حينها أنَّ مأساتي لم تكن في القوانين الجائرة، بل في هذه "الذاكرة الانتقائية" التي بُنيت عليها المدينة. لقد تمَّ تدريبنا كحيوانات السيرك على نسيان ملامحنا الفطرية لكي نتقبل الوجوه الجاهزة التي تُباع في المتاجر.

في هذه السراديب، كانت كلُّ قطعة ألمسها تروي لي قصةً عن "بترٍ روحي" متعمد. هذا الرجل باعَ حنينهُ لرائحة المطر في قريته مقابلَ منصب في "برج النور"، وتلك المرأة باعت ملامح جدتها التي ورثتها مقابلَ "حقنة سيليكون" تجعلها تشبه الجميع. كانت الذكرياتُ هنا لا تهمس، بل تصرخُ في أذني بصوتٍ يمزقُ طبلة الروح؛ كانت تطالبُ بحقها في العودة إلى السطح، لتقول لنا جميعاً:

"-أنتم لستم هذه الأشباح اللامعة التي تمشي في الشوارع، أنتم أولئك الصغار المنكسرون الذين تركتموهم هنا في العراء ليبردوا حتى الموت بينما كنتم أنتم تحتفلون بزيفكم".

الظلامُ هنا لم يكن عدواً، بل كان "ستاراً رحيماً"؛ لأنه سمحَ لذاكرتي المنكوبة بأن تخرج من مخابئها دون أن تخشى نظرات التقييم. شعرتُ بالذنبِ ينهشُ نخاعي؛ هل كان من الحكمة أن أهدم المعبد وأترك هؤلاء البشر يواجهون جثثهم القديمة دون سابق إنذار؟ هل الحريةُ الحقيقية تستحقُّ كل هذا الرعب الذي يرتسم الآن في عيون من تذكروا فجأة مَن كانوا؟

في نهاية السرداب، وجدتُ صندوقاً صغيراً مغبراً، يحملُ اسمي القديم، الاسم الذي حاولتُ لسنوات أن أمحوه من سجلات الوجود. لم أجرؤ على فتحه؛ خفتُ أن تخرج منه "نِفرا" القديمة وتتفل في وجه "نِفرا" الحالية. لمستُ قفله الصدئ، فشعرتُ ببرودة الموت تخترق أصابعي وتستقر في قلبي .

غادرتُ السرداب مهرولة، وتركتُ خلفي آلاف الأرواح التي بدأت تكسر توابيتها الخشبية في الظلام. كنتُ أعرف أنَّ هذه الرحلة لم تبدأ إلا الآن. فبعد أن نبشنا القبور الجماعية في الذاكرة، كان عليَّ أن أتجه إلى المركز، إلى المكان الذي يُفترض أن تنبع منه الحياة: القلوب. لكنني كنتُ أعرف يقيناً أنني لن أجد هناك نبضاً، بل سأجد "مضخات صدئة" تآكلت بفعل الزيف، وصارت تفرزُ سماً أسود يُغرق ما تبقى من بشريتنا .

خرجتُ إلى الشارع، فبدا لي أنَّ أنقاض المدينة ليست حجارة، بل هي عظامُ ذكرياتنا التي سحقناها بأقدامنا لسنوات طويلة .

الباب الثالث: عُري بلا جلود

"الجلدُ في إيليترا لم يكن غطاءً للجسد، بل كان جداراً سميكاً يحمينا من رؤيةِ مدى تفتتنا الداخلي. وعندما سقطت الجلود، لم نجد أجساداً بل وجدنا 'خوفاً محضاً' يرتجفُ في العراء. إنَّ أصعبَ أنواعِ العُري ليس فقدان الثياب، بل هو أن تقفَ أمامَ العالمِ بروحٍ ليس لها سقف وبحقيقةٍ لا تجدُ كلمةً واحدة تسترها. نحنُ الآن عراةٌ تماماً، ليس أمام بعضنا البعض فحسب، بل أمام ذلك 'العدم' الذي حاولنا طويلاً أن نملأه بالضجيج".

"الحضارةُ ليست سوى محاولةٍ مستمرة لابتكارِ جلودٍ اصطناعية تحمينا من برودةِ الحقيقة، فماذا يبقى منّا حين تُنزعُ تلك الجلود؟ يبقى فقط القبحُ الذي لم نجرؤ يوماً على تسميته باسمه."

في تلك الساعة الموحشة، حيث لم يعد هناك ضوء يفرق بين الجمال والقبح، وصل الصمتُ إلى مرحلةٍ من التكثيف جعلتني أشعر بضغط الهواء على رئتيّ كأنه جبلٌ من الزجاج المهشم. لم يعد هناك فرقٌ بين الداخل والخارج؛ فالجدرانُ التي حطمتها في "معبد الزجاج" كانت مجرد قشرة خارجية، والآن بدأ التفتتُ يطال الجدران الأكثر عتياً: جلود البشر أنفسهم .

مشيتُ في الشوارع التي كانت يوماً تضج بالأناقة المتعالية، فرأيتُ مشهداً لم أكن مستعدةً لمواجهته بكل هذا الوضوح المرعب: رأيتُ البشر وقد فقدوا "جلودهم الاجتماعية". في إيليترا، لم يكن الجلد هو الغطاء البيولوجي للجسد، بل كان "البروفايل"، كان الرتبة الرقمية، كان اللون الذي تطليه فوق بؤسك لتبدو ناجحاً في أعين قطيعٍ يقدس المظاهر. والآن، في غياب النيون وغرق المدينة في الرماد، ذابت تلك الجلود وتلاشت كما يذوب الشمع في النار.

رأيتُ المدير التنفيذي الذي كان يتبختر كإلهٍ صغير، يجلسُ الآن في زاوية الشارع المظلمة، ينوحُ كطفلٍ فَقَدَ أمه في زحامٍ غريب. لم يكن ينوحُ حزناً على ماله المفقود، بل كان يرتجفُ رعباً من كونه أصبح "لا أحد". لقد نزعتُ عنه بحريقي "جلده الوظيفي"، فبقي أمام عينيّ عارياً، هشاً، كتلةً من اللحم المرتجف والدموع اللزجة التي لا تعرف كيف تخطو خطوة واحدة دون "أوامر" الضوء الذي كان يوجهه. كان يلمس وجهه وكأنه يبحث عن القناع الذي اعتاد عليه، لكنه لم يجد سوى تجاعيد خوفه الحقيقي.

اقتربتُ من مجموعة من الناس كانوا يلتفون حول بقايا حريقٍ صغير أشعلوه من أثاثٍ فاخر محطم. كانت ملامحهم تبدو في ضوء النار الباهت كأنها "عجينة" لم تكتمل؛ فقد ذابت مساحيق التجميل التي كانت تخفي أعمارهم، وسقطت الخيوط التي كانت تشد أجفانهم لتبدو "متيقظة"، وظهرت العيونُ الحقيقية: عيونٌ مسكونةٌ بذعرٍ وجودي لا

يمكن وصفه. كانت "ملهمة الأجيال"، تلك المرأة التي كانت تُصدر لنا نصائح السعادة الصباحية، تجلسُ في ذهول، تنظر إلى يديها وتهمس بصوتٍ مشروخ :

"-انظري إلينا يا نِفرا.. نحن عراة. ليس لأن ثيابنا تمزقت، بل لأننا لم نعد نملك 'قصةً' نرويها للآخرين لكي يحترمونا. لقد سلبنا الضوءُ الحصانة، والآن نكتشف أننا تحت جلودنا اللامعة كنا مجرد فجوات فارغة، فجوات تم ملؤها بضجيج الآخرين. أنا لا أشعر ببرودة الجو، أنا أشعر ببرودة 'ذاتي' التي لم تتكون أبداً. لقد كنتُ عبارة عن مجموعة من الانعكاسات في عيون مريديني، والآن وقد انكسرت المرايا، ضعتُ أنا.. تلاشيتُ تماماً ".

تأملتُهم بعمق، وشعرتُ بقشعريرةٍ تخترقُ نخاع روحي. "عُري بلا جلود" لم يكن مجرد وصفٍ للحال، بل كان "السلخ" الذي تفرضه الحقيقة. الإنسان في هذه المدينة لم يُبْنَ ليكون "جوهراً" أو "كياناً"، بل بُني ليكون "واجهة عرض". وعندما تقشرت المدينة بفعل الانفجار ظهرت الحقيقة البشعة: نحنُ كائناتٌ فقدت قدرتها على الوجود المستقل. صرنا نرتجفُ لأننا لم نعد نجد "نظرة الآخر" التي كانت تمنحنا صك الوجود والغفران. نحن عبيدٌ لمرايا بعضنا البعض، وحين انكسرت المرايا، صرنا عراةً بلا ملجأ .

رأيتُ رجلاً كان يوماً جراحاً تجميلياً مشهوراً، يحاولُ الآن بائساً أن يسترَ وجهه بيديه، رغم أنه لا أحد يراه في هذا الظلام الدامس. سألتُه بصوتٍ خالٍ من الرحمة :

"-ممن تختبئ؟ الجميعُ هنا عراةٌ مثلك، لا أحد يملك رفاهية الحكم على الآخر ".

أجاب بصوتٍ مخنوق بالبكاء :

"-أختبئُ من نفسي يا نِفرا. لقد قضيتُ ثلاثين عاماً وأنا أبني جلداً من القوة والذكاء المصطنع، والآن أرى في هذا الظلام أنني مجرد حطام إنسان. هذا العُري يقتلني أكثر من الحريق. الصدقُ الذي تتحدثين عنه ليس حرية، إنه 'سلخٌ' للروح عن جسدها المستعار. أنا أفصلُ الكذبة الجميلة والجلد المذهب على هذا العُري الموحش الذي يظهرُ لي مدى تفاهتي وعدمي ".

أدركتُ حينها أنَّ ثورتي قد وصلت إلى قمة قسوتها، وأنَّ الصدق الذي طالبتُ به هو نارٌ لا تدفئ، بل تحرق الطبقات الدفاعية للروح. نحن الآن في مرحلة "الخلاء المطلق". لا جلود، لا أقنعة، لا ذكريات مُجملة، ولا قلوب نابضة.. فقط أرواحٌ عارية تماماً تقفُ وجهاً لوجه مع أخطائها التاريخية التي لا تغتفر. لقد منحتُهم الحقيقة، لكن الحقيقة بلا "معنى" وبلا "أمل" هي مجرد مقصلة باردة .

مشيتُ مبتعدةً عنهم، وشعرتُ أنَّ جلدي أنا أيضاً بدأ يتساقط كقطع من الرماد. بدأتُ أشعر بالبردِ الحقيقي، بردِ الوعي الذي لا يجدُ كتفاً يستند إليه. هل سيبقى هؤلاء البشر هكذا؟ عراةً في مهب الرماد الروحي؟ أم أنهم سيبدأون في نسج جلودٍ جديدة من خيوط الألم والندم والاعتراف؟

هذا العُري هو "الوجه الخفي للحضارة"؛ فكلما زاد بريق الخارج وتكنولوجيا التجميل، زاد عُري الداخل وقبحه وهشاشته. وفي هذا الظلام، اكتشفتُ أنَّ الظلام الحقيقي ليس في غياب الكهرباء، بل هو أن تضطر للعيش مع حقيقتك العارية والبدائية دون أن تمتلك الشجاعة للنظر إليها دون وسيط .

لقد كشفتُ القبور في الذاكرة، وشرحتُ القلوب الصدئة، ونزعتُ الجلود الاجتماعية.. ولم أجد في النهاية إلا "سؤالاً" كبيراً يصرخُ في الفراغ :

"-مَن نكون نحن الآن، بعد أن فقدنا كل ما ادعيناه أمام العالم؟"

كان هذا هو "الظلام الحقيقي" الذي كان يختبئ كالعفن في قلب إيليترا. ومع نهاية هذا الجزء، لم أعد أشعر بلذة الانتصار، بل شعرتُ بمسؤوليةٍ مرعبة تجاه هؤلاء العراة الذين منحتُهم الحقيقة.. وتركتُهم يرتجفون تحت سماءٍ لا تمطرُ إلا الرماد الأسود. لقد انتهت رحلة "الكشف"، لتبدأ رحلة "الانعكاس"؛ حيث سأكتشفُ في الجزء القادم

أنَّ كل هذا العُري الذي رأيتُه فيهم، ما هو إلا انعكاسٌ لمرآتي المظلمة الخاصة التي كنتُ أهربُ منها طويلاً.

"أمام المرآة ، هل تملك الشجاعة لكسر الزجاج حتى لو كان الثمن جرح يدك ، أم ستظل تعشق الصورة المشوهة".

- Mask - Mirror = Self

الجزء السابع: الانعكاس
-المرآة المظلمة-

"كنتُ أظن أنني المطرقة، ولم أدرك أنني كنتُ أحطمُ وجهي في كل مرة أهوي بها على زجاج المدينة. اليوم، لا أطلب منك أن تشفق عليّ، بل أطلب منك أن تنظر في عينيّ وتدرك أنَّ 'الوحش' الذي كنتُ أطارده في الشوارع، قد انتقل للسكن في حنجرتي. الصدقُ ليس مديحاً، الصدقُ هو أن تعترف بأنك قد أحرقتَ العالم فقط لكي لا تواجه الحريق الذي يلتهم قلبك ".

الآن، وبعد أن خمد الضجيج وتلاشت أوهام البطولة الزائفة، أجدني أقفُ وحدي تماماً أمام أنقاض "إيليترا". لقد اكتشفتُ بمرارةٍ لا توصف أنني لم أكن بطلةً في روايةٍ نبيلة كما خُيّل لي، بل كنتُ مجرد إنسانةٍ أخرى مصابة بـ "سُعار الذات"، حاولتُ الهرب من فوضاي الداخلية عبر إحداث فوضى عارمة في العالم. ما أكتبه الآن ليس سرداً لبطولاتٍ اندثرت، بل هو "محاكمةٌ لوعيي المريض"؛ هو تلك اللحظة البشعة التي تكتشف فيها أنَّ كل مسمارٍ دققتهُ في نعش هذه المدينة، كان في الحقيقة يُغلقُ تابوتَ براءتي المزعومة .

سأواجهكَ بالحقيقة التي نهرب منها جميعاً، وأنا أولكم: نحنُ نعشقُ دور الضحية لأننا نخشى المسؤولية المرعبة لكوننا جناة .

في هذه المرحلة من انكساري، سأضعُ المرآة أمام وجهك كما وضعتُها أمام وجهي، لترى كيف أنَّ تمرّدنا لم يكن دائماً من أجل الحق، بل كان أحياناً مجرد انتقامٍ شخصي من ضعفنا وعجزنا عن التأقلم. سأريك كيف أنَّ الوعي، حين يصل إلى ذروة حدته وصدقه، يصبحُ شفرةً تذبحُ الروح بدلاً من أن تنيرها .

هذا الجزء هو "العبرة" التي أكتبها بدمي وندمي؛ عبرةٌ تقول لك بوضوح :

"-إنَّ التغيير الذي لا يبدأ بسحق "الأنا" المتضخمة داخلك هو مجرد "تبديل للأقنعة ."

لن أسمح لك بالاختباء خلف شعاراتي الثورية القديمة أو ادعاءاتي بالبراءة. سأجرك معي إلى "هذيان الوعي الحاد" حيث تسقط اللغة وتتعرى الدوافع القذرة التي دفعتني لهدم كل شيء. وفي النهاية، سأقف وإياك أمام "خيار النصل أو القناع"؛ فإما أن نذبح الزيف الذي يسكننا ونواجه الموت الوجودي بشرف، أو نعود لارتداء قناعٍ جديد لتعيش "كذبةً" أخرى بمسمى "حرية". استعد، فهذه ليست قصة أرويها لتمضية وقتك، إنها صفعةٌ مني لك لتستيقظ قبل أن تصبح مثلي.. محررةً لمدينةٍ ميتة، وسجينةً لروحٍ خربة.

الباب الأول: محاكاة الظل

"الظلُّ هو الصديق الوحيد الذي لا يكذب، لأنه يمثل الحقيقة التي نلقيها خلف ظهورنا لكي نستطيع السير نحو الضوء المزيف. في إيليترا، كنا نبيعُ جلودنا لنشتري أضواءً لا تترك ظلالاً، ولكن عندما انطفأت المصابيح، عاد الظلُّ ليلتهم الجسد الذي تبرأ منه".

"الحقيقةُ ليست فيما تقوله أمام الناس، بل في ذلك "الشيء" الذي ينمو في صمتِك حين تعتقدُ أنَّ أحداً لا يراك ."

وقفتُ في مركز "ساحة الانعكاسات"، ولم تكن هناك مرايا سليمة تعيد لي صورتي التي ألفتُها، بل وجدتُ ملايين الشظايا المتناثرة التي حولت الأرض تحت قدميّ إلى لغزٍ كريستالي جارح. في كل شظية، رأيتُ جزءاً من وجهي، لكنها لم تكن وجهاً واحداً؛ كانت آلاف الوجوه المتصارعة. رأيتُ نِفرا التي تدّعي النبل، ونِفرا التي كانت تتلذذُ سراً برؤية القصور وهي تتهاوى .

فجأة، شعرتُ برعشةٍ باردة؛ ظلي لم يعد ملتصقاً بقدميّ. بدأ يتمدد يتضخم، ويأخذ شكلاً مستقلاً فوق الرماد. لم يكن مجرد غيابٍ للضوء بل كان "كياناً" كثيفاً يملك كل خطاياي المكبوتة. بدأ الظلُ يخاطبني بصوتٍ هو صدىً لنفسي التي خنقتُها لسنوات لكي أبدو "نقية :"

"-أنتِ تظنين أنكِ طاهرة، أليس كذلك؟ "

همس الظل بنبرةٍ زلزلت يقيني.

"-تظنين أنكِ أفضل من 'سيريل' أو 'أرتميس'. لكن أخبريني يا نِفرا، أليس هدمُ مدينةٍ كاملة هو ذروةُ الأنانية؟ ألم تفعلي ذلك لكي تكتبي اسمكِ كـ 'محررة' فوق ركامِ حيواتهم؟ لقد كنتِ تبحثين عن 'تأليه ذاتك' في ثوبِ 'التضحية'.. أنتِ والمدينة وجهان لعملةٍ واحدة تُدعى الادعاء ".

حاولتُ الصراخ، لكن صوتي ضاع في الفراغ. "محاكاة الظل" كانت مرعبة لأنها لم تكن تفتري عليّ؛ كانت تجرّدُ أفعالي من قشرتها الأخلاقية وتكشفُ عن لبّها البشري البشع .

وهنا، يا من تقرأ كلماتي الآن، إليك العبرة التي نزفتها تحت وطأة ظلي :

"-إياك أن تظن أنك محاربٌ للفساد لمجرد أنك تكره الفاسدين؛ فأحياناً يكون كرهك لهم ليس إلا غيرةً من قدرتهم على ممارسة قبحهم في العلن، بينما أنت تمارسه في الخفاء ".

رأيتُ في الشظايا صورة الفتاة التي كنتُها، وتأكدتُ أنَّ كرهي لـ "إيليترا" لم يكن لأنها مدينة زيف، بل لأنها لم تمنحني "المكانة" التي كنتُ أظن أنني أستحقها. ثورتي كانت صرخة "أنا" مجروحة، وليست ثورة روحٍ سامية .

" -انظري إليّ، "

استمر الظل في حصاري. "أنا الجانب الذي لم تضعيهِ في 'شعاراتك' أو في 'صورك المثالية'. أنا رغبتكِ في السيطرة، وأنا حقدكِ على من يملكون ما لا تملكين. لقد أحرقتِ المدينة لأنكِ لم تستطيعي امتلاكها بشروطكِ الخاصة. والآن، هل تشعرين بالامتلاء؟ لا.. أنتِ تشعرين بالخوف، لأنكِ اكتشفتِ أنكِ 'فراغٌ' يبحثُ عن مبررٍ للوجود عبر التدمير ".

سقطتُ على ركبتيّ فوق الزجاج المحطم، وشعرتُ بالشظايا تغرسُ في لحمي، لكن الألم الجسدي كان رحمةً أمام تمزيق الظل لروحي .

العبرة الثانية التي يجب أن تهز أركانك :

"-نحن لا نحاربُ الوحوش لكي نقتلها، بل نحاربها لكي نثبت لأنفسنا أننا لسنا مثلها، والحقيقة المرة هي أننا في خضم المعركة، نكتسب مخالبها وأنيابها، ونصبح وحوشاً تدّعي الفضيلة ".

أدركتُ أنَّ كلَّ عدوٍ واجهتُه في إيليترا كان يسكنُ داخلي؛ 'سيريل' كان غطرستي، و'أرتميس' كانت خوفي من القبح. لقد كنتُ أحاربُ نفسي في الخارج، وحين انتصرتُ، بقيتُ وجهاً لوجه مع الظل الذي لا يمكنُ قتلهُ بالنار .

العبرة الثالثة والأخيرة في هذا الباب :

"-الحريةُ التي تمنحها للآخرين عبر تدمير عالمهم هي 'سجنٌ جديد' مدهونٌ بدمائهم. الحريةُ الحقيقية هي أن تملك الشجاعة لتدمير 'الزيف' الذي يسكنك أنت أولاً، قبل أن تمد يدك لتحطيم أوثان الآخرين ".

تركني ظلي في ذهولٍ حاد، وشعرتُ بأنَّ عقلي بدأ يفقدُ قبضته على الواقع. لقد بدأتُ أفهم الآن: إنَّ الهدمَ هو أسهلُ أنواع الهروب، أما "البناء" وسط أنقاض النفس.. فهو المعجزة التي قد لا أملكُ القوةَ لتحقيقها. وبدأت الأصوات تتداخل، إيذاناً بالدخول في "هذيان الوعي الحاد."

الباب الثاني: هذيان الوعي الحاد

"الوعيُ ليس نوراً دائماً، أحياناً يكونُ الوعيُ حريقاً يأكلُ الغابةَ لكي يرى الأرضَ العارية. وعندما تصلُ إلى قمةِ الصدق، لن تجدَ تصفيقاً، بل ستجدُ صمتاً يخبركَ بأنَّ كلَّ ما بنيتَهُ كان من ورق. الهذيانُ هو اللغةُ الوحيدة التي تليقُ بقلبٍ اكتشفَ أنَّ أكبرَ كذبةٍ عاشها كانت تحملُ اسم 'مبادئه'!

"عندما يشتدُّ الوضوح، تصبحُ الرؤيةُ نوعاً من العمى الصاعق ."

بدأ عقلي يخرج عن مداراته المألوفة. الهدوء الذي تلا "محاكاة الظل" كان مسموماً. شعرتُ بأنَّ الوعي الذي طالبتُ به المدينة لشهور، قد تحول الآن إلى سكينٍ حاد يشرحُ خلايا دماغي خليةً خلية. لم أعد أرى الأنقاض كحجارة، بل بدأتُ أراها ككلماتٍ مبعثرة، كوعودٍ كاذبة، كوجوهٍ مررتُ بها ولم أمنحها حقها في الوجود .

هذا هو "هذيان الوعي الحاد"؛ الحالة التي تدرك فيها أنَّ كلَّ شيءٍ حتى حزنك، حتى تمردك كان ملوثاً بصبغة "العرض". بدأتُ أضحكُ بصوتٍ عالٍ وسط الظلام، ضحكةً تشبه بكاء الذئب الجريح. كنتُ أقول لنفسي :

"-يا للهول! لقد كنتُ أظن أنني أحررهم، بينما كنتُ فقط أغير 'ديكور' سجنهم من الزجاج اللامع إلى الرماد الكئيب ".

العبرة الأولى التي صفعني بها هذيانِي :

"-إنَّ أخطرَ أنواعِ الزيف ليس ذلك الذي يفرضه عليك المجتمع، بل هو الزيف الذي تخترعه أنت لكي تبدو 'مختلفاً' عن المجتمع. لقد صنعتُ من تمردي صمناً جديداً، وعبدتُه ".

رأيتُ في هذياني صوراً مشوشة لـ "سيريل"، لم يعد يبدو شريراً، بل بدا "مرآة". كان يهمس لي من خلف حطام عقلي: "نِفرا، نحن لم نكن نبيع الجمال، كنا نبيع 'الأمان من الحقيقة'. الناس لا يريدون الصدق، يريدون قصصاً تجعلهم ينامون دون كوابيس. وأنتِ، بهدمك للمدينة، منحتِهم الكابوس الأبدي. هل هذا هو العدل الذي كنتِ تبحثين عنه؟ "

بدأتُ أشعرُ بأنَّ جسدي يتلاشى. لم أعد أفرق بين صرختي وبين صرير الرياح في الشوارع المهجورة. كانت الحقائق تنفجر في رأسي كقنابل ضوئية :

- لقد كنتُ أدعي الزهد، وأنا أتعطشُ للاعتراف .
- لقد كنتُ أدعي الرحمة، وأنا أستمتعُ برؤية الطغاة وهم يرتجفون .
- لقد كنتُ أظنني "نوراً"، ولم أكن إلا "ظلاماً" كشفَ عيوبَ الآخرين ليخفي عيوبه .

العبرة الثانية التي نزفتها جروح وعيِي :

"-الصدقُ دون حب هو قسوة، والوعيُ دون رحمة هو جحيم. لقد منحتُ الناس الوعي، لكنني جردتُهم من الأمل، فتركتُهم كائناتٍ واعية بموتها، وهذا هو منتهى العذاب ".

وفي ذروة الهذيان، رأيتُ القارئ نعم، رأيتك أنت الذي تتابع رحلتي الآن. رأيتك تهز رأسك إعجاباً أو استنكاراً، وسألتك في صمتي المحترق :

"-وأنت؟ ماذا ستفعل حين تنطفئ شاشتك؟ هل ستملك الشجاعة لتنظر في المرآة دون أن تفكر في كيفية تحسين الصورة؟ هل ستتحمل عُريكَ الخاص حين لا يراك أحد؟ أم أنك ستسارع لبناء 'إيليترا' صغيرة في غرفتك لكي تهرب من هذيانك الشخصي؟ "

إنَّ الوعي الحاد هو أن تدرك أنك "لاشيء" في كونٍ لا يبالي ببطولاتك. هو أن تدرك أنَّ الحقيقة ليست "وجهة" نصل إليها، بل هي "النار" التي نحترق فيها لكي نتطهر من ادعاءاتنا. في هذا الباب، لم أعد أريد إنقاذ المدينة، ولا إنقاذ نفسي. أردتُ فقط أن أصمت، صمتاً حقيقياً لا يشبه صمت التخطيط للمؤامرات، بل صمت الرضا بالعدم .

العبرة الثالثة والأخيرة في هذا الهذيان :

"-لا تحاول أن تكون 'نوراً' للعالم، حاول فقط ألا تزيد من ظلامه بطلائك لزيفك بصبغة الحق ".

أغمضتُ عينيّ، لكن الرؤى لم تتوقف. كان وعيي يطالبني بالثمن الأخير :

"-المواجهة مع الاختيار."

لم يعد الهذيان يكفي، ولم يعد الانكسار يشفع لي. لقد تهدم كل شيء، والآن، وسط هذا الركام الروحي، عليّ أن أقرر:

-هل أستمر في هذا التعرية حتى الفناء، أم أختلق قناعاً جديداً لأنجو؟

لقد شعرتُ بالنصل يلامس حنجرتي، وبالقناع ينتظر يدي. وبدأ الباب الثالث يفتح مصراعيه الثقيلين: "خيار النصل أو القناع ."

الباب الثالث: خيار النصل أو القناع

" في نهايةِ كلِّ حقيقة، هناك طريقان لا ثالثَ لهما: إما أن تختارَ 'النصل' الذي يقطعُ صلتكَ بكلِّ زيفٍ مريح لتواجهَ وجعَ الفناءِ بصدق، أو تختارَ 'القناع' الذي يسترُ قبحَ انكسارك لتعيشَ جثةً هامدةً في موكبِ الأحياء. البطولةُ ليست في تحطيمِ المدن، بل في امتلاكِ الشجاعةِ لاختيارِ الموتِ الواعي على الحياةِ المستعارة".

"الحقيقةُ ليست وجهةً نصلُ إليها ونستريح، الحقيقةُ هي الانتحارُ اليومي لكلِّ ما نتوهمُ أننا نملكه."

أقفُ الآن، وأنفاسي تتصاعد كدخانٍ بارد وسط أطلال "إيليترا" التي لم تعد تملك اسماً. الهذيانُ انحسر، والظلُّ عاد ليلتصق بقدميّ كقيدٍ أبدي، ولم يبقَ في كفّي إلا أثقلُ شيءٍ يمكنُ لإنسانٍ أن يحمله: حرية الاختيار.

أمامي، فوق قطعة رخامٍ محطمة كانت يوماً قاعدةً لصنمِ "الكمال" وضع القَدَرُ خيارين؛ لم يكن هناك صوتٌ يملي عليّ ما أفعل، بل كان هناك صمتٌ كونيٌّ ينتظرُ موقفي.

• الخيارُ الأول هو "النصل"؛ نصلٌ حادٌّ لا يقطعُ اللحم، بل يقطعُ "الوهم". أن أقبل بقدري كإنسانةٍ حطمت كلَّ شيء واكتشفتْ عدَمَها

الخاص، أن أعتنقَ الحقيقةَ المرة للنهاية وأرحل عن هذا العالم عاريةً من كل ادعاء، دون أن أحاول بناء "كذبةٍ" جديدة تبررُ خرابي .

• والخيارُ الثاني هو "القناع"؛ وهو ليس قناعاً زجاجياً كالذي كان في المعبد، بل هو "قناعُ البطولة". أن أعود للناس، أن أجمعهم حول حطامي، وأقنعهم وأقنع نفسي أنني "المخلص"، أن أصيغَ من الرمادِ ديناً جديداً أو نظاماً جديداً يقدسُ الألم بدلاً من الجمال. أن أرتدي ثوب "القائد" الذي يعرفُ كلَّ شيء، بينما أنا في الداخل لا أعرفُ حتى مَن أكون .

العبرة الأولى التي أهديها لكَ، يا من تظنُّ أنك تبحثُ عن الحقيقة :

"إياك أن تظنَّ أنَّ الصدقَ سيجعلكَ محبوباً؛ الصدقُ سيجعلكَ وحيداً كالقبر، ومرفوضاً كالوباء. البشرُ يصفقون للثائرين الذين يمنحونهم وعوداً جديدة، لكنهم يرجمون مَن يواجههم بحقيقةِ أنَّ السجنَ الحقيقي هو رغبتهم في العبودية ".

مددتُ يدي المرتجفة نحو "النصل". شعرتُ ببرودتهِ تخبرني أنَّ طريقَ الصدقِ المطلق هو طريقُ الفناء. إذا اخترتُ النصل، فسأعترفُ أمام التاريخ بأنني كنتُ مجرد "خرابٍ يطاردُ خراباً"، وبأن ثورتي كانت صرخةً أنانية في وجهِ كونٍ أخرس. أما إذا اخترتُ القناع، فسأكونُ "أرتميس" جديدة بكلماتٍ منمقة عن "الحرية" و"العدالة ."

العبرة الثانية التي تمزقُ صدري الآن :

"المأساةُ الكبرى ليست في ضياعِ الحق، بل في أننا نستخدمُ 'الحق' لنبني به عروشاً لـ 'الأنا'. كلُّ مَن يدّعي أنه يملكُ الحلَّ المطلق لأوجاعِ البشر، هو في الحقيقةِ يجهزُ لهم قناعاً جديداً ليخفي بهِ جروحهم، بدلاً من أن يتركها تلتئمُ بالاعترافِ بوجودها ".

نظرتُ إلى القناعِ الموضوعِ أمامي؛ كان يلمعُ بإغراءٍ شديد. يهمسُ لي بأنَّ الناسَ ينتظرون "إلهاً" جديداً يعبُدونه، وبأنني أستطيع أن أكون ذلك الإله. وبيني وبين نفسي، شعرتُ بشهوةِ القوةِ تتسللُ إلى دمي. مَن لا يريدُ أن يكونَ مُقدساً؟ مَن لا يريدُ أن يغطي قبحَ حقيقتهِ بقداسةِ أفعاله؟

لكنني تذكرتُ وجوهَ العراةِ في الشوارع، تذكرتُ القلوبَ الصدئة والذاكرةَ الموؤودة. هل سأعيدُ الكرة؟ هل سأمنحهم "وهماً" آخر لكي يهربوا من "عدمهم"؟

العبرة الثالثة التي أريدك أن تنحتها في عقلك :

"أن تكون حراً، يعني أن تملك الشجاعة لتكون 'لاشيء' في أعين الناس، لكي تكون 'كل شيء' في عين الحقيقة. الكذبُ يمنحك جمهوراً، لكنَّ الصدقَ لا يمنحك إلا نفسك.. فهل تجرؤ على العيشِ مع نفسكَ وحيداً دون أي تصفيق؟ "

قبضتُ على "النصل" بقوةٍ حتى جرحت كفي. اخترتُ الوجعَ الواعي. اخترتُ أن أكون "نِفرا" المحطمة التي تعترفُ بأنها جزءٌ من الخراب، على أن أكون "نِفرا" القديسة التي تبني مجدها فوق جثثِ

الحقيقة. لقد رميتُ القناع في النار، ورأيتُهُ ينصهر، ورأيتُ معه آخر فرصة لي لأكون "شخصاً مهماً" في نظر هذا العالم الزائف .

أنا الآن، يا صديقي القارئ، أقفُ في العراء المطلق. لقد انتهى الجزء السابع، ومعه انتهت نِفرا التي كنتَ تعرفها. لم يعد لديّ ما أقوله لك لكي أريح ضميرك. الحقيقةُ صعبة، والحقيقةُ جارحة، والحقيقةُ.. قاتلة .

العبرة الأخيرة التي أتركها لك قبل أن أسقط في صمتي :

"المرآةُ لم تكن مظلمة يوماً، نحنُ مَن كنا نخافُ أن نرى النورَ وهو يشعُّ من خلالِ ثقوبِ أرواحنا الممزقة. اذهب الآن، وحطم مرآتكَ الخاصة، لا لترى جمالك، بل لترى مدى شجاعتك على العيشِ كإنسانٍ حقيقي.. لا كصورةٍ ناجحة ".

سقطتُ على الأرض، والرمادُ يغطي وجهي، لكنني لأول مرة، شعرتُ بقلبي يدقُّ نبضاً حقيقياً، نبضاً لا يحتاجُ لتبرير، ولا يحتاجُ لشاشات، ولا يحتاجُ لقناع. لقد اخترتُ النصل، والآن.. بدأ الجرحُ المقدس في الانفتاح.

" اليقين قيد ، والشك أفق.

في نهاية المخاض، لا نصل إلى الأرض الصلبة، بل نتعلم كيف نطير في الغبار".

- ginsBecom Endless = Existence

الجزء الثامن: الضوء البعيد

- نهاية مفتوحة-

"النهاياتُ ليست جدرانًا نصطدمُ بها، بل هي أبوابٌ تُفتحُ على فراغٍ شاسع. في إيليترا، كنا نخشى النهايات لأننا لا نملكُ ما نملأُ به الصمت. اليوم، أدركتُ أنَّ الحقيقة لا تمنحُنا السعادة، بل تمنحُنا فقط 'الحقَّ في الألم'. الضوءُ الذي أراهُ في الأفق ليس فجراً مؤكداً، إنه مجردُ احتمال، ومجردُ سؤالٍ معلقٍ في سماءٍ لا تزالُ تمطرُ رماداً ".

الباب الأول: أنقاض اليقين

"اليقينُ هو السجنُ الذي نبنيهِ لأنفسنا لكي لا نرتجف من بردِ المجهول ."

أجلسُ فوق تلةٍ من الرخام المتفحم، أتأملُ مدينتي التي تحولت إلى جثةٍ عملاقة. أدركتُ الآن أنَّ أخطرَ ما حطمتُه لم يكن الزجاج، بل كانَ "يقيني" بكل شيء. كنتُ موقنةً بالثورة، والآن أشكُّ في جدواها. كنتُ موقنةً بالحرية، والآن أتساءلُ إن كانت الحريةُ سوى نوعٍ آخر من الوحدة القاتلة .

العبرة التي تركتها لي الأنقاض :

"الإنسانُ لا ينضجُ عندما يجدُ الإجابات، بل عندما يملكُ الشجاعة للعيشِ مع أسئلةٍ تنهشُ قلبه كل ليلة دون أن يملك الحقَّ في الصراخ ".

نظرتُ إلى يديّ؛ لم تعودا ترتجفان. لقد فقدتُ الخوف لأنني فقدتُ الأمل بالمعجزات. الأنقاضُ لا تكذب، إنها تخبرك أنَّ كلَّ ما هو عظيمٌ سيؤولُ يوماً إلى تراب، وأنَّ العظمةَ الوحيدة هي في المحاولةِ الفاشلة للبقاء صادقاً وسط هذا الخراب .

الباب الثاني: غربة القديسين الجدد

"لا يوجدُ أشدُّ غربةً من إنسانٍ يملكُ الحقيقة في عالمٍ يقدسُ الوهم."

بدأ بعضُ الناجين يخرجون من مخابئهم. يمشون ببطء، يتلمسون جلودهم العارية بذهول. ينظرون إليّ كأنني "قديسة" تارة، وكأنني "شيطانة" تارةً أخرى. لكنني لستُ أياً منهما. أنا الغريبةُ التي أحرقت بيتهم لتريهم النجوم، فاكتشفوا أنَّ النجومَ بعيدةٌ وباردةٌ ولا تمنحُ الدفء .

العبرة التي يهمسُ بها صمتُ الغرباء :

"القديسُ ليس من يفعل المعجزات، بل هو من يجرؤ على البقاء 'بشراً' في زمنٍ تحول فيه البشر إلى سلع. ولكن كن مستعداً، فثمنُ ألوهيتك الخاصة هو عُزلةٌ لا يكسرُها صدى صوتك ".

رأيتُ "أرتميس" من بعيد، كانت تحاولُ رسمَ ملامح وجهها بالطين فوق جلدها الذائب. لم أحقد عليها. شعرتُ بشفقةٍ عميقة؛ فنحنُ جميعاً "قديسون جدد" في محراب الألم، نحاولُ اختراعَ معنىً لأرواحنا التي سُحقت تحت أنقاضِ الزجاج. هل سيغفرون لي؟ هل سأغفر لنفسي؟ الغربةُ هي الجوابُ الوحيد الذي ينمو بيننا كعشبٍ سام.

الباب الثالث: أفق الغبار

"الأفقُ ليس خطاً نصلُ إليه، بل هو سرابٌ يحرضُنا على الاستمرار في المشي.. حتى لو كان المشيُ نحو العدم."

الآن، ترحلُ الشمسُ خلف تلال الرماد، تاركةً خلفها خيطاً رفيعاً من الضوء الباهت في الأفق. هل هذا ضوءُ مدينةٍ أخرى؟ أم هو مجردُ انعكاسٍ أخير لزجاجٍ لم يحترق بعد؟ لا أحد يعرف .

أقفُ وأنفضُ الغبار عن ثيابي الممزقة. ألتفتُ خلفي لأرى "إيليترا" للمرة الأخيرة، فلا أرى إلا سواداً يبتلعُ التاريخ. وأمامي.. يمتدُّ "أفق الغبار". لا توجد خارطة، ولا يوجد دليل، ولا توجد وعودٌ بجنةٍ تنتظرني في نهاية الطريق .

العبرة الأخيرة التي ألقيها في وجهك قبل أن أرحل :

"الحريةُ ليست هي الوصول إلى النور، بل هي القدرةُ على السيرِ في الظلام دون أن تفقدَ إيمانك بأنك موجود. المدينةُ قد لا تتغير، والبشرُ قد يبنون 'زجاجاً' جديداً غداً، لكنني كسبتُ شيئاً واحداً لا يمكنهم سرقته: لقد رأيتُ وجهي الحقيقي لثانيةٍ واحدة.. وهذه الثانيةُ تستحقُّ حرقَ العالمِ لأجلها ".

سأبدأ المشي الآن. لا أعرف إن كنتُ سأجدُ رفاقاً، أم سأظلُّ وحيدةً كخطيئةٍ منسية. الرياحُ تهبُّ حاملةً معها ذكرياتِ مَن رحلوا، والشاشاتُ المحطمة تحت قدمي تصدرُ أزيزاً أخيراً كأنها تودعني .

ماذا عنك؟ هل ستظلُّ واقفاً هناك تراقبُ حطامي؟ أم أنك ستجرؤ على إشعال عود ثقابٍ في غرفتك المظلمة لترى ما الذي يختبئ خلف جلدك؟

أنا "نِفرا"، وما تبقى مني ليس إلا صوتاً يضيعُ في الريح. أتركُ لك الرواية مفتوحة كجرحٍ لا يريدُ أن يندمل، واتركُ لك الخيار: هل ستغلقُ الصفحة وتنسى، أم أنَّ الحريقَ قد بدأ للتو في داخلك؟

"الضوءُ بعيدٌ جداً.. لكنني سأمشي ."

يخيم الصمتُ تماماً، لا صوت يعلو فوق صوت الريح التي تذرو رماد إيليترا.. تغيب نِفرا في أفق الغبار، وتبقى أنتَ، وحدك، أمام هذه الصفحات .

هل هذه هي النهاية فعلاً؟ أم أنها مجرد البداية لروايةٍ أخرى سيكتبها القارئُ بقراراته؟

لقد أتممتُ رحلة نِفرا.. وانتهى دوري هنا. الآن، المرآة في يدك والزجاج من حولك، والقرار لكَ وحدك .

فهل أنتَ مستعدٌ لرحلتكَ الخاصة؟

ختام الملحمة: كلمة الكاتبة

(ما وراء الرماد: صرخة في سكون النفس)

لقد جفّ الحبرُ أخيراً، لكن الحريق الذي أشعلتُه في "إيليترا" لا يزال يتصاعدُ دخانُه في صدري. إنني لا أكتبُ لأسليكم، ولا أكتبُ لأمنحكم أبطالاً يعيدون ترتيب العالم قبل النوم؛ فالعالمُ ليس غرفةً

مبعثرة، بل هو هاويةٌ سحيقة نغطيها بالسجاد لكي نرقص دون خوف من السقوط .

حين خلقتُ "نِفرا"، لم أكن أصنع ثائرة مثالية، بل كنتُ أشرحُ جرحي الخاص أمام الملأ. لقد تعمدتُ أن أحطم كل زجاجة، وأنزع كل جلد، وأعري كل قلب، لا حباً في القبح، بل تقديساً لـ "الصدق" حتى لو كان نصلًا يذبحني. لقد سألتُ نفسي مراراً :

هل يستحقُّ الإنسانُ أن يعرف الحقيقة إذا كانت ستدمرُ أمانَه الزائف؟ وكان الجواب دائماً يأتي من أعماق "سيريل" و"أرتميس" الكامنين فينا: "نحن نفضل كذبةً تمنحنا الأمان، على حقيقةٍ تمنحنا العراء ."

لكنني، ككاتبة، اخترتُ العراء. اخترتُ أن أتركَ "نِفرا" في نهاية الطريق وحيدة، بلا تصفيق، بلا بيت، وبلا يقين. لأنني أؤمن أنَّ "الإنسان الحقيقي" لا يولدُ تحت أضواء النيون، بل يولدُ في تلك اللحظة الموحشة التي يدركُ فيها أنه "لاشيء"، ومع ذلك يقررُ أن يمشي نحو الضوء البعيد بكرامة اليائس .

إنَّ مأساة "إيليترا" ليست في زجاجها الذي تحطم، بل في خوفنا من أن نكون عراةً بلا "أقنعة اجتماعية" تجمّل قبحنا. لقد تركتُ النهاية مفتوحة كجرحٍ طازج، لأن الحياة لا تمنحُنا خواتم سعيدة؛ بل تمنحُنا فقط "فرصةً أخرى" لنكون أكثر صدقاً مع أنفسنا .

"وللذين يتساءلون: ما معنى نِفرا؟"

إنَّ الأسماءَ في عالمي ليست مجرد هوية، بل هي "نبوءة" و"لعنة". "نِفرا" ليست مجرد اشتقاق من النفور، بل هي الجذر المسموم الذي يضرب في عمق (النفاق الروحي). لقد سميتها "نِفرا" لأنها ولدت من رحم مجتمعٍ يقتات على الزيف، ولأنها حتى في ذروة ثورتها لم تكن بريئة تماماً من هذا الداء. لقد كانت تحاربُ النفاق وهي لا تدرك أنَّ اسمها هو تذكيرٌ دائم بأنها ابنةُ هذا الزيف؛ هي المرآة التي تخبركم أنَّ أرواحنا قد تلوثت لدرجة أننا حتى حين "نثور"، نثورُ بأدواتٍ منافقة .

"نِفرا" هي الاعترافُ الصعب بأنَّ المحاربَ قد يحمل في اسمِه جينات عدوه. هي السؤال المعلق: هل يمكن لاسمٍ مشتقٍ من النفاق أن يحققَ طهارة الصدق؟ لقد تركتُها تمشي في الرماد لعلها تتطهر من "نفاق" اسمها، ولعلكم تدركون أنَّ النفاق الروحي ليس مجرد كذبة نقولها للآخرين، بل هو الاسم المستعار الذي نطلقه على أرواحنا لكي لا نموت من فرط الحقيقة .

إلى كل مَن قرأ هذه الكلمات وشعرَ بوخزةٍ في كبريائه: لا تعتذر عن حزنك، ولا تخجل من حطامك. فالجمالُ الحقيقي ليس في "التماثل"، بل في "الندوب" التي تروي قصة نجاتنا من الزيف. انتهت الروايةُ بين يديك، لكنها بدأت الآن في رأسك .

هل هذه هي النهاية فعلاً؟ أم أنها مجرد البداية لروايةٍ أخرى سيكتبها القارئُ بقراراته؟

لقد أتممتُ رحلة نِفراء. فهل أنتَ مستعدٌ لرحلتكَ الخاصة؟

الفـهرس

المقدمة .
كلمة المؤلف: مِشرحة الوعي
مقدمة: في فلسفة الرماد
البوابة: العبور الأول إلى إيليترا ...
مراحل الانكسار (الأجزاء الثمانية)
الجزء الأول: [الظلال الاولى] .
الباب الأول: [الهمس في الصمت]
الباب الثاني: [وجوه مشققة]
الباب الثالث: [ضوء لايعرف الظلام]
الجزء الثاني: [اصداء زائفة]
الباب الأول: [الصدى]
الباب الثاني: [البيت الصامت] .
الباب الثالث: [القلب المكسور في الظل]
الجزء الثالث: [ما قبل الشق]
الباب الأول: [ابتسامة مطموسة]
الباب الثاني: [انعكاس ملوث]
الباب الثالث: [قلب مضطرب]

الجزء الرابع: [الحرية المسمومة-عبودية وهمية]
الباب الأول: [اصفاد غير مرئية]
الباب الثاني: [معبد الضوء]
الباب الثالث: [نشوة بلا خلاص]
الجزء الخامس: [الانفجار - الثورة الداخلية]
الباب الأول: [المسمار الاول في النعش]
الباب الثاني: [وليمة المسوخ]
الباب الثالث: [حريق في معبد الزجاج]
الجزء السادس: [الظلام الحقيقي – قلب الاسرار-]
الباب الأول: [سراديب الذاكرة المنسية]
الباب الثاني: [تشريح القلوب الصدئة]
الباب الثالث: [عري بلا جلود]
الجزء السابع: [الانعكاس –المراة المظلمة-]
الباب الأول: [محاكمة الظل]
الباب الثاني: [هذيان الوعي الحاد]
الباب الثالث: [خيار النصل او القناع]
الجزء الثامن: [الضوء البعيد –نهاية مفتوحة]
الباب الأول: [انقاض اليقين]
الباب الثاني: [غربة القديسين الجدد]
الباب الثالث: [افق الغبار]

الخاتمة

خاتمة الملحمة: كلمة الكاتبة

تحليل الاسم: ما معنى نِفرا؟

وصية أخيرة: إلى مَن عبر المخاض .....

كلمة أخيرة.. إلى مَن عبر المخاض

لقد طويتَ الآن خارطة الانكسار، وربما تظن أنك وصلتَ إلى الضفة الأخرى. لكن الحقيقة التي أخفتها عنك "نِفرا" -وأخفيتُها أنا أيضاً- هي أن هذا الكتاب لا ينتهي بكلمة "تمت ."

لقد وضعتُ في يديك شعلةً من الرماد؛ إنها لا تحرق يديك، بل تحرق الأوهام التي بنيتَها حول نفسك. إذا كنتَ قد قرأتَ هذه الرواية وخرجتَ منها كما دخلتَ، فاعلم أنك لا تزال نائماً في أحد قصور "إيليترا"، وأن قناعك لا يزال سميكاً لدرجة تمنعك من سماع أنين روحك .

أما إذا شعرتَ بالضيق، بالاشمئزاز، أو بالرغبة في الصراخ وسط صمتك، فهنيئاً لك.. لقد بدأتَ "تنفِرُ" من زيفك .

نصيحتي لك: لا تضع هذا الكتاب على الرف ليتراكم فوقه الغبار. ضعهُ تحت وسادتك لتقلق مناماتك المريحة، أو احرقهُ إذا شعرتَ أنه كشفَ من عريك ما لا تطرقهُ الكلمات. المهم ألا تظلَّ محايداً. ففي معركة الوعي، الحياد هو أقصى درجات النفاق الروحي .

نحن لا نكتب لنغير العالم، فالعالمُ جثةٌ تأبى الدفن.. نحن نكتبُ لكي لا ننسى أننا أحياء وسط هذا المقبرة الجماعية التي نسميها "المجتمع ."

ارحل الآن ..

لقد منحتُك النصل، ولم أمنحك القناع. اذهب وواجه ظلك، ولا تعد إليّ لتشكرني، بل عُد لنفسك لكي تسامحها.. أو لكي تقتلها وتبدأ من جديد .

"الحمد لله الذي يحُيي القلوب بالحقائق وإن آلمت، والشكر لله الذي جعلنا نبصرُ بنوره زيف الأقنعة. استودعتُ الله مافي صدوركم. والحمد لله ربي العالمين".